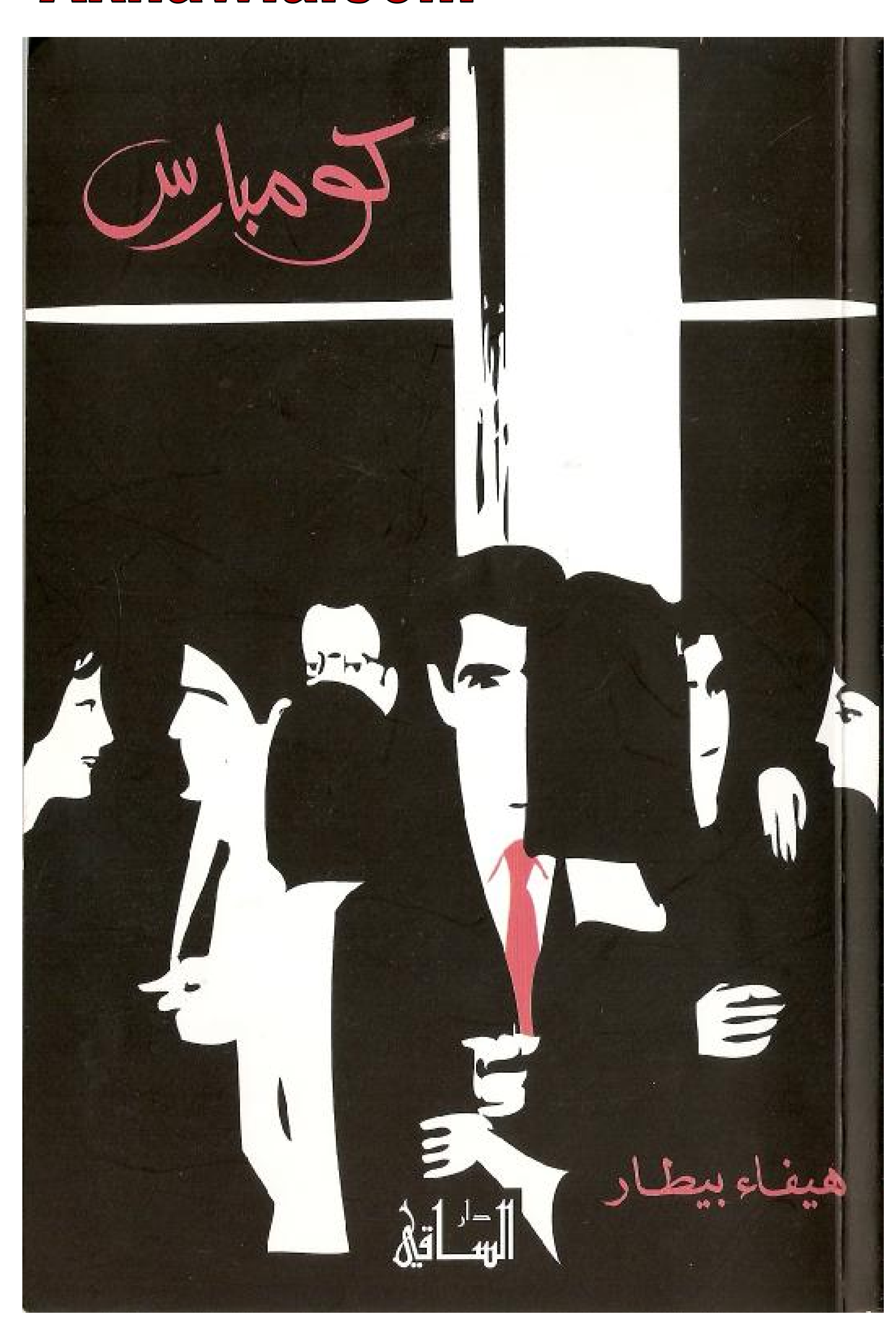

كومبارس
هيفاء بيطار
دار الساقي

الفهرس

ليلة الدخلة...
والمصباح الكهربائي

كان العرسُ أسطورياً حقاً، فكّرتُ وأنا أنقّل نظري بين باقات الزهور البديعة المنسّقة بذوق رفيع، واللوحات الكبيرة الخلابة للقاعة الفسيحة في نادي الشرق أن الإبهار الحقيقي يأتي من الإتقان الدقيق، وبدت القاعة الغاصة بأكثر من ثلاثمئة مدعو أشبه بلوحة ضخمة، كل عناصرها متجانسة وباهرة.

لم أستطع أن أحيد بنظري عن وجه العروسين، كان وجه صديقة الطفولة إيمان يشع بنورٍ غريب، وبدت في الفستان الأبيض، الذي أصرّت أن يكون بسيطاً برغم الثراء الفاحش لخطيبها - كامرأة من نور، تركت شعرها الأسود الطويل ينسدل حتى منتصف ظهرها، ونثرت عليه وروداً بيضاء صغيرة، ووضعت إكليلاً من الزهور الطبيعية الصغيرة على رأسها، ومن وقت لآخر كانت تخصّني بنظرة على قصرها تفتح نفقاً بين روحي وروحها، نفقاً تتدفق فيه كل ذكريات طفولتنا وشبابنا، حتى اللحظة التي تخرجنا فيها في كلية الطب.

لا أنكر أنني أحسستُ بشيء من غيرة من إيمان، حسدتها لأنها وفقت بعريس ـ لقطة ـ كما يُقال، ترك ممدوح الوطن وهو في السادسة عشرة،

ودرس الطب في أميركا ثم تخصص في الجراحة التجميلية، وبرع في عمله، صعب أن تتجمع كل هذه الصفات في شاب، علم وجمال وأخلاق ومال. زجرتُ نفسي على مشاعر الغيرة، وعرفتُ أن سببها قلقي ألا أوفق بشريك مماثل.

انتهت الحفلة عند الفجر، وانتقل العروسان إلى الجناح الملكي في الشيراتون وسيسافران بعد يومين لقضاء شهر عسل يتنقلان خلاله بين العواصم الأوروبية...

كانت إيمان تتوق إلى لقاء ممدوح، فقد أحبته باندفاع وفرح كبيرين، وبرغم لقاءاتهما القصيرة فقد شعرا أن أحدهما خُلق للآخر، وتمت خطبتهما في الصيف على أن يعود ممدوح الصيف التالي ليتزوجا، وتكون إيمان قد تخرجت من كلية الطب.

ما إن ضمتهما الغرفة الدافئة، حتى أحسّت إيمان أن لهاث شوقها صار مسموعاً، وأربكتها الرطوبة في راحتيها، جفّ ريقها وشعرت بدوار خفيف.

كم تتمنى أن تذوب بين ذراعيه، أن تدخل بحالة غيبوبة جميلة كما كانت تحلم دوماً. لم تفهم سبب حلمها الوحيد بأنها ستدخل غيبوبة ساحرة ما إن يجمعها مع ممدوح فراش واحد!

فيما تنزع إكليل الزهور عن رأسها، تدفقت صور متلاحقة أمام ناظريها عن فتيات نزفن بشدة ليلة الدخلة، انقبض قلبها وهي تخشى أن تكون إحداهن. لكنها طردت هذه الصور المنغّصة، وهي تحس بلهفة عارمة لتتخلص من عذريتها التي بدت لها ثقيلة ومقيتة على نحو كبير.

تخيلت أنها بعد لحظات ستكون عارية بين ذراعيه، انكمشت متوترة من

الفرح ودارت ارتباكها بضحكة، كانت تتأمله كيف يفتح زجاجة الشمبانيا، ويرشف زبدها ثم يصب السائل البارد في كأسين، تشعر أنها مفتتنة بكل حركة يقوم بها، لم تكن تحب الطعم الحامض للشمبانيا، لكنها شربتها بتلذذ وهي تتأمله بشغف ونفاد صبر. لم تفهم لِمَ لا يأخذها بين ذراعيه حالاً، ولِمَ أشعل سيجاراً وأخذ يتأملها بنظرة فيها شيء يثير قلقها، نظرة فيها جمود ليس له أي تفسير، كما لو أنه يخفي أمراً يجد صعوبة في إطلاعها عليه.

اقتربت منه، وداعبت شعره الناعم، وقررت بلحظة أن تطوّح بكل الحياء الذي دربّوها عليه، وأقنعوها رغماً عنها أنه يمثّل جوهر أنوثتها، وأن الرجل يفتتن بحياء الأنثى.

أمسك يدها، عصرها بقوة وقبلها، فاخترقتها الشهوة كسهم من نار، همست له:

ـ ياه كم أحبك! كم أشتاقك!

سحبها بقوة وأجلسها في حضنه، داعب عنقها وقبلها قبلات ناعمة متلاحقة، أحست أن الحياة سخية معها إلى درجة تحس معها بالحرج، وشعرت أنها تدخل نفقاً وردياً دافئاً، كما حلمت دائماً.

وبرغم نشوتها أحست أنه مشغول بأمرٍ ما، إنه لا يعطيها ذاته كلياً، سألته ما الذي يشغل بالك؟

تفحّصها باهتمام وقال: أنتِ ذكية جداً.

ردت بغنج: حقاً!!

تعمّد ألا ينظر إلى عينيها، عكس وجهه توتراً عميقاً، أخذ نفساً زفره على دفعات وقال: أخشى أن أزعجك، لكن ما يقلقني أمر في غاية البساطة،

وأخشى إن بحتُ به أن أضايقك.

قبلته من شفتيه مستمتعة بجرأتها وقالت بتأكيد: كل ما تطلبه يسعدني ولا يضايقني أبداً.

أبعدها عنه، ونظر إليها نظرة توسل، ثم قبل يديها بجنون وهو يقول لاهثاً:

ـ أحقاً يا إيمان، هل ستتفهمين طلبي ببساطة؟

ـ بالطبع، لكن ما الأمر؟

أبعدها عنه، وقف، نزع ربطة عنقه من الحرير الفضي، وألقى جانباً الجاكيت السوداء، تأملتْ قامته المنتصبة الرشيقة بافتتان، أحست بتوق لتعري هذا الجذع المشدود وتلتحم به، سرت في جسدها رعشة وهي تتخيل أن جلدها سوف يلتحم بجلده بعد لحظات. فكّرت أن شهوتها ناضجة لدرجة تحس بثقلها كما لو أن وزنها قد ازداد.

فوجئت أنه فتح حقيبته السامسونايت وأخرج منها مصباحاً كهربائياً يعمل بالبطارية، ضحكت وهي تنزع حذاءها نافدة الصبر كما لو أنها تحفزه ليقترب منها. لم ينتبه للهفتها، قال وهو يحدق بها بنظرة مصممة باردة:

ـ أرجوكِ اسمحي لي أن أفحص بكارتك، أريد أن أتأكد أنك لم تقومي بعملية ترقيع البكارة، المنتشرة بكثرة هذه الأيام.

للوهلة الأولى شكّت في ما سمعتْ، بل أحست أنها بالتأكيد تعاني ارتباكاً كبيراً بسبب التعب والتوتر، لم تصدق طلبه، لكن منظر المصباح الكهربائي في يده، والنظرة الغريبة في عينيه ثبتاها في الحقيقة.

إنه يرغب فعلاً في فحص بكارتها، ويريد التأكد أنها بكارة سليمة وغير مغشوشة!

بذلت جهوداً جبارة كي لا تنهار من الصدمة، وتعلق نظرها بالمصباح الكهربائي الذي أحسته مصوباً نحوها كخنجر. لم تعرف كيف ستتصرف، كانت مرتبكة بشوقها الكبير للالتحام به. شعرتْ أن أبخرة داكنة تغشي دماغها، وتشلّه عن التفكير، لم تستطع التفوه بكلمة، وصار الصمت بينهما غير محتمل ويجب خرقه بأية كلمة، قال لها: أرجوك، الأمر بسيط، لقد رأيت مئات الفتيات يجرين هذه العملية، ويخدعنْ زوج المستقبل وأنا لا أريد أن أخدع. أنا أحتقر هذه العملية، فهي تدل على النفاق والكذب وانعدام الأخلاق. نظر إليها بعتب ثم تابع كلامه: أرجوك لا تنظري إليّ بهذه الطريقة.

سألته: كيف أنظر إليك؟

ردّ: كالمفجوعة.

هزّت رأسها موافقة، إنها فعلاً تشعر بالفجيعة، كانت مصدومة، لكنها أحست بنغمة الانكسار والرجاء في صوته، ماذا لو ألقى نظرة على بكارتها، إنها عذراء غير مغشوشة، يمكنها أن تحرجه وتخجله، وسيكون ممتناً لها إلى الأبد!؟

إنه طبيب ويعرف البكارة المغشوشة والمخيطة من البكارة الأصلية،

لكنّ شيئاً غامضاً في روحها جعلها تستميت لمنعه من تحقيق ما يريد، أي مارد تمطى في روحها، أحست بصلابة في كتفيها، فقامت من مكانها، وفتحت البراد، شربت ماءً بارداً، قالت له دون أن تلتفت إليه: أنتَ لا تثق بي أليس كذلك؟

قال: بل أثق بك كل الثقة، وأحبك بجنون، وأنت تعرفين ذلك، تعرفين أنه لم يمر يوم إلا اتصلت بك حين كنتُ في أميركا، أيوجد حب أكبر من ذلك؟

ـ ولِمَ ترغب بفحصي إذاً إذا كنت؟ لم تستطع أن تكمل عبارتها إذ أحست بحلقة حديد تقبض على حنجرتها تكاد تهرسها.

ـ إيمان، خذي الأمر ببساطة، قلتُ لك إنه مجرد فحص بسيط ، مجرد..

قاطعته بحنق: وقد بدأت تشحب وتحس بقشعريرة باردة تخضّ جسدها: لا.

الأمر ليس بسيطاً، الآن شكك قد تفجّر، شكٌ طال كبته أليس كذلك؟

ـ ياه يا إيمان، لا تعقدي الأمور، تنتظرنا حياة رائعة، فدعيني ألقي مجرد نظرة على بكارتك.

أحست بحالة هائلة من الاستفزاز، التفتت إليه وحدقت فيه بحقد، قالت مهددة: وإن لم أسمح؟

كبتَ غضبه: لِمَ إصرارك على الرفض، لكأنكِ... لم يكمل عبارته فأكملتها نيابة عنه: لكأني غير عذراء، وأجريت عملية الترقيع!

ـ لم أقل هذا، لكن يدهشني إصرارك على الرفض!

فكرت أنها لو سمحت له بفحصها فستنتقل من امرأة ذات كرامة إلى امرأة مسحوقة ومهانة إلى الأبد.

حلّ بينهما صمتٌ من رصاص، كان كل منهما غارقاً في أتون انفعالاته الداخلية. جلست على الكرسي، تحدق في التطريز الجميل في قماش فستانها، كانت الأشكال دائرية مختلفة المساحة، تحولت الدوائر إلى وجوه تعرفها وتحبها وتسجنها في الوقت ذاته، ارتسمت وجوه أمها وأختها وخالتها، والمعارف، والأقرباء. حدقوا فيها بعيون قاسية غاضبة، وصرخوا معاً: اسمحي له بفحص بكارتك يا عنيدة، مجرد نظرة لا تستغرق جزءاً من ثانية،

وبعدها ستنفتح أمامكما أبواب السعادة الأبدية.

ـ لا لن أسمح له، فكرامتي واحترامي لذاتي فوق أي اعتبار. فأنا لستُ مجرد غشاء، ولا أستمد قيمتي منه.

ـ ما هذا الكلام السخيف، إياك والتفريط بهذا الزوج اللقطة، احمدي ربك أن حظك ممتاز، مليون فتاة تحلم بزوج مثله.

ردت بسخرية: زوج يحمل مصباحاً كهربائياً ليلة الدخلة؟

صرخوا وقد نفد صبرهم: اسمحي له يابلهاء، فأنت عذراء، ستملكينه إلى الأبد، وسيكون كالخاتم في إصبعك.

ـ لا أريد أن أملك أحداً، ولا أريد لزوجي أن يكون كالخاتم في إصبعي، أريد حباً واحتراماً و...

ـ اخرسي، اخرسي، لا تعقدي الأمر، هيا اسمحي له أن يفحصك.

دخلت الحمام، نزعت الثوب الراشح بالوجوه البغيضة، لبست بنطال الجينز وقميصاً محتشماً، أحست أنه غريب، لا تريده أن يرى جسدها.

حاول أن يخفف من توترهما، اقترب منها، فانتفضت، كان لا يزال ممسكاً بالمصباح الكهربائي، ورجاها من جديد أن تسمح له بفحص بكارتها، فانتفضت وسألته بتصميم: لنفرض أنك وجدت بكارتي مخيطة، ماذا تفعل؟

ـ ما رأيك! ماذا يُفترض بي أن أفعل؟ ما رأيك بامرأة تبدأ حياتها بالخداع والغش هل تستحق أن أعيش معها؟

ـ ستطلقني إذاً.

ـ بلا ذرة ندم.

ـ لكن الفتيات يقمن بهذه العملية لإرضاء الرجل.

- **أي غش** هذا، أي عمل حقير.

- لماذا، يتحملن الألم والذل، لأنهن عارفات عفن الأفكار والأخلاق خلف كل شيء.

أدهشها بانفجار ثورة غضبه، أفهم من كلامك أنك عرفتِ غيري وخدعتني بترقيع بكارتك.

استفزته، بضحكة صفراوية قصيرة، غمرها قرف أخذ يغمر جسدها شيئاً فشيئاً كما لو أنه يغرقها في بحيرة آسنة، مرّت حياتها أمامها كسراب، امتد القرف حتى طفولتها وماضيها... جوهر تربيتها تقديس العذرية! مجتمع يختزلها بغشاء تافه...

قال نافد الصبر: دعي هذه الليلة تمر على الخير.

ردت ساخرة: لقد مرّ الليل كما ترى، وطلع الصبح.

أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة غريبة، وشفاههما ترتعش، كمن يريد أن يتكلم ثم يمتنع عن الكلام.

تساءلت إن كانت عيناها تفصحان عن كل الألم والاحتقار اللذين تحسهما.

بينما لم تكف نظرته برغم جنون غضبه عن التوسل إليها كي يفحص بكارتها، كانت تردد بينها وبين نفسها عبارة ليلة الدخلة، ومع كل مرة يشتد قرفها، من كل شيء، كل شيء.

كانت تنقل نظرها بين وجهه ويده التي تحمل المصباح، كي تغيظه وتدفعه للحدود القصوى من التوتر، كي تتدفق سموم روحه وأفكاره أمامها. قال لها بغيظ:

ـ اسمعي لآخر مرة سأطلب منك أن.

صرخت لن أسمح لك، أتفهم، وإن أصررت سأملأ الدنيا صراخاً.

رمى المصباح من يده، اقترب منها وهو يحدق بوجهها بنظرات من نار قال:

ـ أنت طالق، يا حقيرة، لن أسمح لجنس حقير أن يخدعني.

عجباً، لم تتوقع أن شعوراً رائعاً بسعادة عظيمة تدفق من روحها كانفجار ينبوع في داخلها، ينبوع يتفجر تحت فجيعتها بالرجل الذي أحبته بجنون وطعنها بمصباح كهربائي!

بين الألف والياء

هؤلاء الأغبياء، لم ينجحوا في تشخيص مرضي، هذا إن كنتُ مريضة أساساً!

كل مافي الأمر، أن نوباً مفاجئة من الصراخ الجنوني، تنتابني، يرافقها رشق من الكلام الهذياني غير المترابط، لا يصدر عن عقلي، بل عن بؤرة ملتهبة في أعماق روحي أسميها بؤرة الخوف المزمن.

وبعد أقل من ربع ساعة تنطفئ نوبة صراخي الهستيري، فأشعر باعياء ونعاس بعد خمودها، ولا أذكر كلمة مماقلتُ. لا أتذكر سوى نظرات الذعر والخجل حولي، وأفراد أسرتي يهرعون لإغلاق النوافذ، والنظر إليّ نظرات متوسلة كي أسكت وألاّ أفضحهم عند الجيران. عجباً! لا أحد من أفراد أسرتي الحبيبة يجرؤ على لمسي، وأنا ممسوسة بنوبة الصراخ الهستيري، كما لو أنهم يخشون الموت بالصعق الكهربائي.

قصدتُ أشهر أطباء الأعصاب ليعالجوني من تلك النوب العصبية التي صارت متقاربة، أرهقوني بالفحوص، وأعطوني أدوية سممت جسدي، لكن النوب العصبية لم تتراجع، بل ازدادت، حتى فكر أهلي أن جنوناً أكيداً لا شفاء منه أصابني.

إلى ان استيقظت ذات يوم من عز النوم، ورعشة الشفاء تهزّ جسدي بقوة، فوجدتني ألهث ودموعي تغسل وجهي، الذي تهلل فرحاً بمعرفة

الحقيقة، الحقيقة الشافية، بل وحدها تملك القدرة على الشفاء، وآمنتُ أن تلك النوب الهستيرية لن تعاودني ثانية.

تهللت أسرتي فرحاً، وتراجع زوجي عن قراره بتطليقي، لكنهم لم يصدقوا أن الشفاء تسلل إليّ عبر حلم. في الواقع لم يكن حلماً بل نبوءة، أو بتعبير أدق شِفرة الحل، لقد حلمت بوجهيهما متواجهين يكادان يتلاصقان. الاثنتان صديقتا الطفولة، رافقتهما منذ المرحلة الابتدائية حتى نهاية تحصيلنا الجامعي. أتخيل نفسي دوماً محشورة بينهما، أقصد محشورة في قلب نظام متناقض يهرسني بلا رحمة، ويجبرني أن أعيش مشلولة الارادة والتفكير، لأن صديقتي الأولى الألف (أ) زوجة ضابط في المخابرات، وصديقتي الثانية (الياء) زوجة سجين سياسي، وأنا تائهة بينهما، صديقة السجين والسجّان! لاأجرؤ على التساؤل من أنا؟! كنتُ أحتفل بعيدي ميلاديهما، وأنام في بيتيهما، وأصادق أولادهما. بيتُ (ألف) قصر فاجر الترف، وبيت(ياء) قبو بائس، وأنا المتذبذبة أتأرجح بين قصر وقبو، أنا الشبيهة بالحيوان الذي يخشى العصا، ويخاف أن يجوع. أنا التي لا أملك سوى الصراخ لأنه يهدّئني قليلاً، ويجعلني أتحمّل العيش الذليل الأقرب إلى الضياع.

ياه، كيف أصف نفسي، كإنسان يعيش حياته غائباً عن نفسه؟

تسللت الحقيقة إلى نفسي بهيئة حلم يحمل طاقة الشفاء. تقابل وجهاهما: زوجة السجين، وزوجة السجّان. تبادلتا نظرة طويلة، اشتعلت شرارة حارقة من نظرتيهما اخترقت قلبي، وأضاءت أعماقي المعتمة بالخوف والذل.

أسرعتُ أشعل النور، وأتجه بقلبٍ يخفق بقوة لأنبش صور الطفولة.

كنتُ أبحثُ بإلحاح عن صورة، صورتنا نحن الثلاثة نقف إلى جانب شجرة سرو عملاقة في باحة المدرسة الابتدائية، كنت بينهما، وكنا نبتسم ببراءة لحياة لا نعرف ماذا تخبئ لنا. أحضرتُ المُكبّرة لأتأمل وجوهنا الطفولية محاولة أن أستشفّ من خلالها ما سنؤول إليه.

هل حلمنا يوماً أن يسير بنا الزمن بتلك الطريقة الساخرة المُحرجة؟!

وأنا دوماً بينهما أتمزّق، يتملكني إحساس دائم أني منفصلة عن الحياة، صعب أن يفهم أحد هذا الإحساس إن لم يعِشْ ظروفاً مشابهة. أن تكون صديقاً للسجين والسجّان، أن تحس أنك مهما فعلتَ ستظل هناك مسافة تفصلك عن الحياة الحقيقية، حياة الكرامة والشجاعة. وأنا أعيش كالنعامة أدفن رأسي في التراب، وأخشى الجهر بالحقيقة.

لم أجرؤ مرةً واحدة أن أحكمَ على نفسي، دوماً أؤجل ذلك الحُكم وأتهم نفسي أنني ضحية مبالغات غير منطقية، وأنني إنسانة سوية وطبيعية، إذن فمن الطبيعي أن يحافظ الإنسان على صداقات طفولته.

وأعتقد أن الضغط العصبي المزمن الذي عشته أصابني بنوع من الغباوة او التبلّد الذهني، كما لو أنني تعودت تشوه الواقع، كما تعودتُ أن أغرق في النوم بعد سماعي نشرة الأخبار التي ترشح دماً.

لكن إلى أي حد يمكنني أن ألوم نفسي في بلد يُمكن أن يغيّبك في السجن طوال حياتك، أو يسحقك كحشرة لمجرد أنك تفكر بطريقة مختلفة عمّا يفكر فيه هؤلاء الذين يدّعون شرف حماية البلد!

اعترفت بفشلي، وعجزي عن إيجاد أي تناغم مع عالمي، ووجدتُ أن أفضل ما أقوم به، أن أقصي نفسي وأفتش عن العديد من الوسائل التي تساعدني على تبلد أحاسيسي. لكن ظل في قرارة نفسي وفي أعماق ضميري شيء يرفض أن يدجّن إنه هوى الحقيقة، ترى هل هوى الحقيقة غريزة؟ إنه ذلك الصراخ الهستيري الذي يعني: كيف يمكنك يا متذبذبة أن تصادقي السجين والسجّان؟ ياه كم أحتاجُ أن أعطفَ على نفسي، أن أؤاسيها، هل أختبئ في طيّات ماضٍ بعيد ونظيف، أردد تلك العبارة برجاء وتوسل أن يعود؟ أذكر ذلك اليوم الذي أحسه يشع نوراً، كنا نحن الصديقات الثلاث متخرجات بدرجة امتياز في كلية الهندسة المدنية. قصدنا مقهى بحرياً، كنا نضحك والدموع تملأ أعيننا، عارفات أن كلاً منا ستسير في طريق: اخترتُ السفر إلى لندن للحصول على الدكتوراه، واختارت ألف الارتباط بضابط شاب فقير، لكنه وعدها أنها خلال فترة قصيرة ستعيش حياة الملوك، وارتبطت ياء بمدرس وصحفي يكتب مقالات جريئة.

ابتلعتني الغربة، وعشت السنوات الست في مدينة الضباب لاهثة لتحقيق ذاتي، كنت أتتبع أخبار البلد، السجون التي تغص بالشباب، الفقر والفساد والرُّشى، التدهور الفاضح للتعليم، فساد القضاء، وكنتُ أحاول أن اقنع نفسي أن البلد بخير، وأن ما أسمعه مبالغات يراد منها تشويه سمعة الوطن.

كان من الطبيعي، حال رجوعي إلى وطني، أن أتصل بصديقتي الطفولة، ألف وياء. ففوجئتُ أن القطيعة حلت بينهما، بالكاد تعرفتُ إلى

ألف، فبعد أن أخضعت نفسها لعدد من عمليات التجميل تحوّلت إلى إنسانة أخرى، ولولا تلك الرنة المميزة في ضحكتها لشككتُ أنها إنسانة لا أعرفها. كانت تنتقل بين عدة قصور، قصر في العاصمة، وآخر في القرية مسقط رأس زوجها، وآخر في البرتغال، وشقة فخمة في باريس.

لم أجرؤ أن أسألها: من أين لكِ هذا، وأنت تزوجت شاباً فقيراً؟ صحيح أنه ضابط ولكن...

بل وجدتني أهنئها على المنصب الرفيع الذي احتله زوجها خلال سنوات قليلة!

وما أثار دهشتي أكثر من غناها الفاحش ولعها بالوعظ الأخلاقي.

صاحبة الملايين زوجة اللص تتحدث عن الفساد والفاسدين، وتمتدح زوجها وأقرانه الذين لولا جهودهم المخلصة، لغرق الوطن في الفوضى وانعدم إحساس المواطن بالأمان.

ذات مرّة تجاسرت وقاطعتها قائلة: إن الأمان الذي نحسه يشبه أمان دجاجات في قفص، فرمقتني بنظرة زجاجية باردة، ليس فيها ذرة ود . ارتعشت خوفاً وفرز خيالي صور مئات الدجاجات وهي تُذبح.

صرتُ أتأمل نفسي مع الأيام كيف أتحوّل وأمسخ. أبتسم بوجه ألف بمذلة مقرفة، شاعرةً أنني أحمي نفسي من وحش غامض يتربص بي، ويمكن أن ينقضّ علي في أية لحظة، كنتُ أشعر أني بريئة بالصدفة، ويمكن أن أصير مذنبة وأغيب في السجن لمجرد تهمة لا أملك شيئاً لردها. بل صرت أتباهى بصداقتي معها، وأتقبل هداياها الفخمة، عطور، حُلي من الذهب، حلويات مستوردة، وما إن أحمل هداياها، حتى أسرع بقلب

خافق بالحب إلى صديقتي ياء أعطيها الهدايا كلها، وأقسم لها بالله وبحياة أولادي أنها هدايا من أصدقاء كثر.

أجلس مع ياء في قبوها المعتم أحدق دون أن يرمش لي جفن إلى عينيها السوداوين المترعتين بالاكتئاب الصامت، أحس حزنها يعبق في المكان كرائحة الخزامى، حزن عميق وصاف لدرجة لايمكن تجميله، أسالها عن ابنها البكر المتفوق في دراسة الطب، ترد بصوت عميق كما لو أنه آتٍ من أعماق كهف. الشاب ينهار، صار يفرط في شرب الكحول والتدخين، لأن المنحة التي يستحقها لإكمال الاختصاص في باريس سرقت منه وأعطوها إلى ابن لرجل مسؤول.

وابنتها التي لم تكمل الخامسة عشرة مصابة بعزلة ولا تختلط بأحد، لأنها تخجل من ثيابها التي تفوح منها رائحة الألبسة المستعملة، ولأنها لاتحب أن يسألها أحد عن والدها الذي لم تره قطّ، لأنها كانت جنيناً حين غاب في السجن!

ألتقي ألف، أحس كيف ينغلق قلبي دونها، ويتيبس جسدي بالرفض.

أتمنى لو أصرخ بها من أين لك كل هذا المال يا لصة؟ أنتِ وزوجك سجنتما زوج ياء.

أتخيلها تصرخ بوجهي: اخرسي نحن نحمي البلد من الشغب وأصحاب الأفكار المدمرة مثل زوج صديقتنا ياء...

ـ لكن زوج ياء إنسان شريف ومناضل، ويكتب من أجل مصلحة البلد.

ـ بل هو حقير، يريد أن يبيع البلد لأعداء العروبة.

أقاطعها بتحد : بل هو رجل رائع ، يدفع حياته ثمناً للحرية والكرامة، أما أنتِ وزوجك فلصّان تدّعيان حمايتنا.

أتخيل أنها تضغط جرساً صغيراً إلى جانبها، فيجرني كلاب حراستها إلى السجن.

بين قصر وقبو تنوس حياتي، فلا أملك سوى الصراخ. أعترف بلا خجل أن لا موقف لي، وأنني قبلت مبلغاً كبيراً جائزة بحث علمي، وعرفتُ أني لم أكن الفائزة، بل إن صديقتي ألف بنفوذها، أجبرت لجنة الجائزة على أن تعطيني إياها. أقبل عطاءاتها وهداياها، ككلب ينتظر أن يلقي له سيده بالفتات.

لكن احتقاري لذاتي يعصف بأحشائي كغثيان لايمكن ردّه ، ربما يمكنني القول إن موقفي الوحيد من كل ما يجري حولي هو الازدراء.

أجل ازدراء كل شيء، خاصة ذاتي، ومتعتي القصوى في قراءة مقالات تتفنن في تحليل الفساد وفضح الأنذال واللصوص المستبدين.

أعطي صديقتي ياء المقالات الساخنة الممنوعة، والتي أسحبها من الأنترنيت، نتفنن أنا وياء في تحليل الفساد ومناقشة تلك المقالات، ونحن نشرب النبيذ الفاخر الذي قدمته لي ألف.

ياء تعيش منزوية على حافة الأشياء، زوجها الغائب في ظلمة السجن، مجرد صورة معلقة على جدار، تمسح عن وجهه غبار الحزن كل يوم، تجلس قبالة الصورة ترشف القهوة وتدخن دخاناً رخيصاً. بينها وبين الصورة دخان، لكن حياتها تتكثف في هذا الدخان. يجسّد الدخان أحلامها وأحزانها، بل إنه يرسم حروفاً وكلمات.

كنتُ أعرف أنها سحبت قرضاً كبيراً كي تدفعه رشوة لتتمكن من زيارة زوجها. حكت لي بعد إلحاح عن تلك الزيارة القصيرة، والعيون المتلصصة تحدق إليهما، أعطته ثياباً ومدت له من خلال الشبك المعدني صور أولادهما، انفجر ببكاء مزق قلبها حين أخبرها أنه رأى صورة ابنته منذ سنة في مجموعة صور لصديقه في السجن، تمثل عيد ميلاد ابنة صديقه، قال لها: تصوري أتفرج على صور ابنتي ولا أعرفها، حاولت تعزيته، لكن الكلام تبدد، صدرت عنها آهة طالعة من أعماق روحها كما لو أن خنجراً مغروساً في قلبها سُحب فجأة.

ضمّ صورة ابنته إلى صدره، تكوّم من الألم وهو يقول: هذا يكفي.

قضيت ساعات مع ياء نحاول تحليل المعنى الكامن في عبارة السجين: هذا يكفي.

في نوبة صراخي الأخير، التي زلزلت جدران المنزل ـ كما قالوا لي ـ كنتُ أصرخ هذا يكفي.

لم أعد قادرة أن أؤجل حكمي على نفسي، من أنا؟ هل أنتمي إلى ألف أم إلى ياء، أم أني سأعيش عمري متذبذبة بينهما؟ أحدّق إلى الفراغ المكهرب بالغضب، عيناي تشعان شرراً ودموعي مثل ماء النار. أتوسل إلى الإله والبشر والأشياء أن ينقذوني من تمزقات روحي، أن يقدموا لي طرف خيط الخلاص.

أخبط على الطاولة بقبضتي وأنا أصرخ: كفى ذلاً، هذا يكفي، هذا يكفي.

تؤلمني يداي من قوة الخبطات، فجأة يقفز قلم محتقن بنسغ الحقيقة الأسود اللماع يندس بين إبهامي وسبابتي، يلصقهما بقامته الرشيقة مرفوعة الرأس، ويهتز ضاحكاً بصوت جريء: أنا الحل.

انخطاف

لم يعد يشغلني سوى الزمن، إذ فجأة وجدتُ نفسي أنسحبُ عشرين عاماً إلى الوراء، حين التقينا صدفة في قاعة المؤتمرات، بلهفة صادقة اندفعنا نتصافح، ونتأمل بعضنا بعضاً بنظرة متفحصة لنقدّر تأثير الزمن علينا. فرحتُ أنه لم يتغير كثيراً، غزا شيب خفيف شعره، وارتسمت تجاعيد ناعمة حول عينيه، لكنه لا يزال يتمتع بالنظرة الصافية المتأملة ذاتها.

قال لي: هذه أنتِ، يا إلهي لم تتغيري ! بالله عليك أخبريني كيف حافظتِ على وزنك ذاته؟

أسرعتُ أكمل عبارته: تقصد وزني ذاته قبل عشرين عاماً.

هزّ رأسه متأملاً العبارة المُخيفة: عشرون عاماً... أحقاً لم نلتق طوال تلك السنوات؟

فجأة عصف بي شعور غامض، لكنه زلزل أعماقي، تجلىّ الماضي بيني وبينه بكل ندوبه، ودون أن أحتاج إلى مرآة كي أتفحّص وجهي، أحسستُ كيف تنفلت من عيني نظرة حزن يائس إلى حدٍ غريب ! أحياناً يكون الحزن مثل ألسنة لهب طالعة من الروح، هذا ما أحسسته تماماً، وتكشف

لي بلحظة ذلك الشعور الغامض العاصف: النَدَم.

أكان يجب أن ألتقيه صدفة وبعد عشرين عاماً، كي أدرك كم أنا نادمة عليه، وكيف أن ذكراه محفورة في روحي إلى الأبد كندبة.

انقضّ عليّ رعبٌ أخرس منعني من الكلام، ترى ما فائدة الكلام وكل تلك المشاعر تضطرم في روحي، كنتُ أصغي إلى كلامه، مستمتعة بنغمة ذلك الصوت الدافىء الآتي من الماضي، قال إنه سعيد بنجاحاتي، وانه كان متأكداً من موهبتي في الكتابة. غريبٌ أمري، لا أعرف لِمَ انغرس كلامه كسكين في قلبي، لكن ماذا سيقول لي بعد عشرين عاماً على انفصالنا؟

بدا وقع تلك الكلمة (انفصال) غريباً، ولا يطاق، تخيلتُ سلسلة فضية أنيقة، تتعانق حلقاتها، قطعت بيدٍ وحشية. قلبت الكلمة في خيالي، ألفظها كل مرة بطريقة مختلفة، رشحت عيناي بدموع لم يتبينها، وهمست لنفسي: هذا يعني أننا كنا معاً ذات يوم.

من حسن الحظ أنه يستلم زمام الحديث، حدثني عن زوجته وأولاده، قرّب شاشة الموبايل من وجهي، وضغط زراً صغيراً، فتتابعت صور زوجته وأولاده أمام نظري، وجدتني أقارن بيني وبين تلك المرأة التي حاولتُ جاهدة أن أجعلها خاسرة مقارنةً معي.

ضحكتُ مدارية اضطرابي وألمي. سألني، لِمَ تضحكين؟

قلتُ: منذ عشرين عاماً لم يكن الموبايل موجوداً.

بدت عبارتي تافهة ولاعلاقة لها بسياق الحديث.

كنا نتحدث قرب بوابة زجاجية عريضة تطل على شرفة واسعة، ملأني

ضوء الشمس الدافئة برغبة جامحة بالمغامرة، بتحدي كل الحصانة العقلية والاجتماعية الزائفة التي نتصرف وفقها. كم رغبتُ أن أضمّه وأقبله! تذكرتُ كيف كانت نظرته إليّ، لم يكن يستطيع أن ينظر إليّ إلا بوَله يعجزُ عن السيطرة عليه، وتمويهه نظرته لي فضحته، كل من حولنا عرف كم يحبني. وكنتُ أصرخ به متذمرة: يا إلهي، كفّ عن النظر إليّ بتلك الطريقة أمام الناس ؟

فيرد محتجاً: لا أستطيع التحكم بنظرتي، صدقيني.

فأرد بنزق: كيف لا تستطيع ، أنظر إليّ بشكل عادي.

- لكن قولي لي، كيف أبدو وأنا أنظر إليك؟

- أوف، كيف سأقول، كما لو أن عينيك تشعان.

تمنيتُ بكل طاقة روحي لو تشع عيناه برهة، يا للندم يخزني كإبرٍ تنغرس في مسامي، كانت نظرته لي برغم مودتها وفرحها بلقائي باردة، ليس في قلبها ذرة دفء.

سألني: هل ترغبين في شرب القهوة؟

في الواقع لا أعرف فيم أرغب، لكني قلتُ نعم. تأملته وهو يبتعد بقامته النحيلة ومشيته المتأنية، هوى قلبي، وتسارعت أنفاسي يا إلهي إنه هو، هو ذاته الرجل الرائع الذي خسرته، وعدتُ أستحضر بخيالي صورة زوجته شاعرةً بغيظٍ شديد، كما لو أنها اعتدت عليّ.

أتراه يحبها ؟! هل تزوج عن حبٍ ؟ أهو سعيد معها؟ وأتاني صوته من نفق ضبابي معتم: لن أحب سواك مدى الحياة.

هل أذّكره بما قاله لي؟ هل أذكّره بذلك اليوم الرائع حين كذبنا على أهلنا، وادعينا أننا ندرس عند أصدقاء، وسافرنا إلى حلب، تهنا في شوارعها، وتوّجنا يوم الحرية بزيارة قلعة سمعان، كنتُ أقفز وأضحك من السعادة وأنا أصرخ بفرح: ياه، أتمنى لو أعيش في قلعة! ما رأيك؟

وحدها حجارة الزمن كانت شاهدة علينا، حين احتضنني بقوة وجسده يرتعش حباً يرجوني ألا أتخلى عنه، وأن أصون علاقتنا، قبلته قبلة يهوذا عارفة ــ برغم حبي له ـ أني لن أجرؤ على الزواج به، لأن أبي سيموت إن تزوجت رجلاً من غير ديني.

أبي مريضُ القلب، فهل أقتله ؟!

عاد يحمل كأسين من القهوة، تعلّق نظري به كأنه نبع الحقيقة، كان كياني من الداخل يتداعى وينهار، لا، أنا لا أتحطم، لكن ما ينهار ويتداعى هو السنوات، الآن انخطفت عشرين عاماً إلى الوراء، لألتقي الرجل الذي خسرته لأني جبانة، ولا أملك شجاعة الدفاع عن الحب. وجدتني أدرك بلحظة كم أحبني هذا الرجل. إنه الآن من ألمع الشخصيات العلمية، والأهم، أن أخلاقه المهنية ممتازة. عدتُ أبحثُ باستماتة عن شيء من دفء نظرته. لكن في قاع عينيه هوّة عمرها عشرون عاماً معتمة وباردة.

وجدتني برغم تشوش ذهني أرغب أن أذكره بالماضي الجميل، لكني لم أنجح بتذكر شيء، ذهني مرضوض من الألم، فكّرتُ أني أشعر الآن بالألم ذاته الذي سببته له حين تخليتُ عنه.

عجباً، كيف أقنعتُ نفسي أني يمكن أن أحب رجلاً آخر، لكنه من دهانتي !

كيف أقنعوني وزرعوا أفكارهم في دماغي. كم أكره تلك الوجوه التي تدّعي حبي وحمايتي ومصلحتي.

تحدثنا عن مواضيع عديدة ونحن نرشف القهوة التي لها طعم المرارة والخيبة، كانت روحي منفصلة عني، تهيم هناك في أروقة ماض بعيد بعيد، ماض اعتقدتُ أنه مات. اندفعت دموع حارقة إلى عيني ورغبتُ لو أصرخ في قلب القاعة الغاصة بالشخصيات العلمية المرموقة: أدفع عمري ثمناً ليرجع الزمن عشرين سنة.

لأتزوج هذا الرجل، وأنجب أطفالاً، أطفال الحب.

ياه أية جريمة أني خسرته ! من أحبني مثله؟

كنتُ أتذوق نغمة صوته، فأحس الصوت يتحول إلى راحةٍ من حنان تمسح جلدي اليابس.

امرأة تتسول دفء الماضي، دفء رجل لم تعد تعني له شيئاً.

ياه، يالألسنة اللهب الطالعة من روحي، خجلت، إذ أدركتُ أن تنفسي مسموع، أتراه يشعر بلهاث أشواقي يلفح وجهه؟

حاصرنا الأصدقاء والمعارف، وتحلق حوله طلابه يسألونه. اعتذر لانشغاله، مدّ يده ليصافحني مودعاً، متمنياً أن نلتقي دوماً في المؤتمرات.

تجسدت بيني وبينه صورة قلعة سمعان الساحرة، وذلك العناق الشبيه بالذوبان والذي دام دهراً كما أحسسنا.

ضغطتُ على يده، اليد ذاتها التي طالما داعبت وجنتي بحنان آسر.

اندفعت دموع إلى عيني، دموع مباغتة، مُحرجة، وقبل أن يسألني، مابك، أسرعت أقول: هكذا أنا دوماً، »أتحسس« من الدخان في الأجواء المغلقة.

ابتسم ثم استدار مديراً ظهره للماضي، تاركاً امرأة تتفرج على حطام أحلامها.

كومبارس

مضى عام على وفاة يوسف. يئستُ من محاولة الكتابة عنه، كلما جلستُ إلى أوراقي منتظرة معجزة أن يتحرك القلم بيدي، أحس بأن كياني يتداعى، كما لو أنني كائن من رملٍ أنهار وأتلاشى، ما يذهلني إحساسي أن لا فرق بين يوسف حين كان حياً وبعد أن مات ! كان رجلاً هشاً هشاشة حلم، فحين التقيته أو حتى حين أتذكره لا أشعر بقوة حضوره ككائن. بل يبدو لي أقرب إلى الأشباح... خفيفاً، شفافاً، ضئيلاً.

كان منطوياً من الألم حين التقيته أول مرة، يدفن وجهه بين راحتيه ويصرخ أرجوكم، عيني تكاد تنفجر، أحسها كالحجر. تمكنتُ بصعوبة من فحص عينه المؤلمة، كان ضغطها مرتفعاً بشدة، لكني طمأنته أن الألم سيزول بسرعة وبأن علاجه يتطلب بقاءه أياماً في المستشفى.

برغم ألمه الشرس، أثار منظره في نفسي عاصفة من الضحك، بدا أشبه بمهرج، بشعر لحيته الأحمر الكثيف، حتى اعتقدتُ أنه يصبغ لحيته، ثم انتبهت أن حاجبيه ورموشه لهما اللون ذاته، وقميصه البرتقالي الفضفاض والمجعّد، وعينه الحمراء الجاحظة المتألمة. بدا رجلاً مضحكاً صاخب الألوان، رث الهيئة... ولمتُ نفسي كوني لم أتعاطف معه كما يفترض.

صباح اليوم التالي كان ينتظرني عند باب غرفته، التي يتشارك فيها مع سبعة مرضى، وقد حمل بيده عقداً من أزهار الفتنة، غلب عطرها على رائحة المراحيض العابقة باستمرار في أروقة المشفى وغرفه. مدّ لي العقد، قدّرتُ أنه يبتسم لأن عينه السليمة كانت تشع بنور فرح.

يستحيل أن ترى فم يوسف، فهو مغطى بشاربين كثيفين، وحين يتكلم بالكاد تلاحظ حركة فكيه، ولولا اهتزاز خفيف للحيته، لاعتقدت أن الكلام يأتي من مكان بعيد، لأن صوته واهن.

شكرته على عقد الفتنة. ردّ بانفعال: ياه، لم أصدق أن ألمي سيزول! لاشيء يذل مثل الألم يا دكتورة.

لمته على إهماله صحته، وحملته مسؤولية تردي وضع عينه، وبأنه لو اهتم بمرضه منذ البداية لما وصل إلى تلك الحالة الزرية.

ضحك. أغاظني ضحكه، مسّد لحيته الكثيفة، ثم زفر زفيراً طويلاً كما لو أنه يود أن يبوح لي بمكنونات قلبه، خاطبته بلهجة تهديد:

ـ اسمع يا يوسف، وضعك لا يحتمل التأجيل، يجب أن نجري عملية لعينك ونستخرج منها (الماء الزرقاء) المنتفخة التي تسبب ارتفاع ضغط العين والألم.

بدا متململاً وسألني برجاء: ألا يمكن تأجيل العملية أياماً فقط؟

قلتُ بلهجة قاطعة: مستحيل.

نظر إلي برجاء وقال: أرجوك، أياماً فقط، وإلا سأطرد من عملي لو تغيّبت.

ـ لكني سأعطيك تقريراً طبياً عن حالتك و...

قاطعني: لن يفهموا، سيطردونني إن لم أمثّل اللقطة.

حدقت به متسائلة: أية لقطة؟

مسّد لحيته الحمراء الكثيفة وقال: محسوبك يعمل ممثلاً...

سيطرت على نوبة ضحك لجمتها بصعوبة. تابع كلامه مُوضحاً:

- كومبارس، أعمل كومبارس.

خرج يوسف من المشفى على مسؤوليته، ومساء اليوم ذاته زارني في عيادتي الخاصة برفقة زوجته الشابة، كانت جميلة حقاً وأنيقة برغم الفقر الذي تشي به ملابسها، ورائحة الألبسة المستعملة التي تفوح منها، وقد زينت معصمها وأصابعها بحُلي تقليدية رخيصة وجميلة.

فكّرتُ أن يوسف محظوظ بزوجته، وعجبتُ كيف قبلت الزواج برجل دميم وفقير وساذج حتى حدود البلاهة، عرفتُ أن سبب زيارتهما لي أن أؤجل عملية يوسف عدة أيام حتى يُنهي دوره في المسلسل.

حاولت أن أفهمهما أن كل تأجيل يضر العين ويفقدها حدة الرؤية.

لكنه توسل إليّ أن أقدر ظروفه، فعمله هو مصدر الدخل الوحيد لأسرته المؤلفة من زوجة وأربعة أطفال أكبرهم في العاشرة من عمره. فجأة انتفض من مكانه وقرب وجهه مني ورجاني أن أجس ذقنه، قال بإلحاح: هيا لا ترددي أتعرفين لديَّ تشوه فظيع في فكي، لديَّ ضمور كبير في فكي السفلي، وولدت بالتصاق تام في عظمي الفكين...

عرفتُ سر لحية يوسف، لم أرَ في حياتي تشوهاً كهذا، تناوب هو وزوجته في سرد قصته، كاد يموت يوم وُلد، لأنه لم يستطع الرضاعة، فكان يُعطى الحليب بأنبوب معدة، وفي عمر السنتين خضع لسلسلة

عمليات جراحية معقدة حتى تمكن الأطباء من فصل عظمي الفك، ولولا اهتمام الجمعيات الخيرية به لتوفي لأن أسرته فقيرة ولا تملك القدرة على علاجه.

قال لي ساخراً من نفسه: تصوري يا دكتورة على مدى عشرين عاماً أمثل دور الخادم أو المجنون أو الأبله. طوال عشرين عاماً أتعرّض لسخرية من حولي ولاحتقارهم.

قاطعته زوجته معترضة: في الشاشة فقط.

ضحك ضحكة تعني: بل في الحياة أيضاً.

رضختُ لرغبة يوسف في تأجيل العملية، ومساء اليوم السابق للعملية، وحين كنتُ أهم بإغلاق عيادتي دخلت زوجته، وبرغم مرحها الظاهر وابتسامتها العذبة، عرفتُ أنها تداري قلقاً كبيراً. سألتْ برقة: أتسمحين أن آخذ دقائق من وقتك؟

قلتُ: خذي الوقت الذي تريدين.

قالت ودموع ترشح من عينيها: قد لا يكون معنى لكلامي، لكني أجد نفسي مدفوعة لقوله.

فكرت أنها تعني: كم ستكلفها العملية، فأسرعت أوضح لها أن يوسف يُعالج في مشفى حكومي مجاني، وبأنني لا أريد شيئاً منها.

قاطعتني: ليس هذا ما أقصده يا دكتورة، أردت أن أقول لك إن يوسف رجل رائع، برغم أن الكل يسخر منه، فإن قلبه من ذهب، قلبه لا يعرف إلا الحب، وبرغم عاهته والآلام التي عاناها، فهو إنسان يحب الحياة، ولا يعرف إلا الفرح. تصوري لولا يوسف لانتحرت، فقد

خدعني شاب وسيم وثري حين كنتُ في السادسة عشرة، غرر بي، ووجدتُ نفسي حاملاً.

أنكر الشاب علاقته بي، وضجت المدينة بالفضيحة، كاد أخي يذبحني، وأنا تمنيتُ الموت، ولولا يوسف الذي تزوجني وربى ابني وقال للجميع إنه ابنه للحق العار بأسرتي.

خسر يوسف أسرته، فقد قاطعه أخوته وأقاربه لزواجه بي، وكانوا يسخرون منه حين يلتقونه ويصرخون: قرونك واصلة حتى السماء.

حتى إن والده قال له: يبدو أنه لا ينقصك عظم الفك فقط، بل العقل..

عشت مع يوسف سعيدة، لم أعرف الحزن يوماً، لم يعيرني، ولم يمنني...

وأحب ابني كأولاده. لم يعتبرني خاطئة ولا زانية، بل كان يقول لي حين أشكره على إنقاذه لي: أنتِ إنسانة صادقة وقد أحببتِ ذلك الشاب الحقير من قلبك، والحب شريف دوماً.

وجدتني مساء منساقة للتفكير بيوسف، ما معنى أن يعمل كومبارس في دور خادم أو مجنون أو أبله !! كيف يتقبل عاهته برضى، فلا يشعر بحقدٍ على القدر؟ ونقمة على الأسوياء؟

صباح العملية فاحت رائحة صابون الغار من لحية يوسف، ابتسمت له قائلة:

يا سلام يبدو أنه صابون غار أصلي!

ردّ بضحكة مصطنعة، بل بدا انه يحمل نفسه على الضحك مدارياً خوفه.

سألته: أتشعر بالخوف؟

رد بثقة: لم أعرفه يوماً.

ـ لا يوجد إنسان لا يخاف.

أسرع يرد: أنا لا أخاف.

ضحك طبيب التخدير وقال حسناً تنشق بعمق، وبكل طاقتك. وقرب من وجه يوسف قناع التخدير.

توقف قلب يوسف قبل نهاية العملية بدقائق، شلني الرعب وأنا أحدق بعيني إلى الصدر النحيل الساكن، وتفجّر صراخ أخرس في صدري: يوسف حذار أن تموت، كيف يتوقف قلب لا يعرف سوى الحب؟

وقفت كالمشلولة أراقبهم، طبيب التخدير، ممرضات، فنيين، يزرقون أوردة يوسف بأدوية، ويصرخون مطالبين بجهاز الصدمة الكهربائية للقلب وأنا طافية في فراغ، مشلولة، مصعوقة. صرختُ: أتبحثون عن جهاز الصدمة الكهربائية للقلب؟ عجباً ألا يفترض أن يكون في غرفة العمليات؟

ردّ أحدهم ببرود: يوجد جهاز واحد لكل المشفى؟

أي لعشر غرف عمليات.

أضرب صدري بحنق: أهذا معقول؟ أهذا معقول؟

تضحك ممرضة كاشفة عن أسنان منخورة من التدخين: كل شيء معقول هنا.

أين الآذن يحضر جهاز الصدمة؟

استغرق البحث عن الآذن وقتاً، بدا لي دهراً. أين الآذن؟ أين؟

كنتُ أصرخ ونظري متجمد على صدر يوسف النحيل الساكن.

وصل الآذن غاضباً وقال إنه ذهب لإحضار أسطوانة أوكسجين من المستودع. رجوته أن يسرع لإحضار جهاز الصدمة الكهربائي. استدار والشتائم تنفلت من فمه، لاعناً الفقر وحياة الشقاء. عاد بعد دهر يحمل جهاز الصدمة. كنتُ أتوسل طوال الوقت ليوسف ألا يموت. كانوا يضغطون صدره النحيل بقوة حتى كادوا يهرسون أضلاعه.

يارب يارب يعود القلب النابض بالحب للخفقان! لكن جهاز الصدمة لم يعمل.

سمعت صوتاً بارداً يقول: الوصلة الكهربائية للجهاز معطلة، أين الكهربائي ليصلحها؟

صرخت بجنون: ماذا؟ أتطلبون كهربائياً الآن؟ الرجل يموت، الرجل يموت..

حدقت بي الممرضة ببرود: طولي بالك دكتورة، نحن نعيش هنا، ولسنا في أميركا.

قال طبيب التخدير بصوت مرتاح: تمالكي نفسك يا دكتورة، هذه حوادث تحصل في كل مكان، كم من المرضى توقفت قلوبهم وماتوا!

صرخت: لكن الأمر مختلف، هنا الإهمال فظيع، الإهمال يقتل. إنه جريمة.

وبقسوة ردّ: أرجوك كفى، لا توتري الجو أكثر مما هو متوتر. ماذا نفعل؟ هكذا ظروفنا.

غرزت إبرة في قلب يوسف، حُقن القلب المتعب من الحب بدواء كي ينبض ففضل الهدوء. اندفعتُ إلى يوسف أهزه من كتفه وأشد شعر لحيته.

وأنا أصرخ: أرجوك يا يوسف، أرجوك لا تمزح معي.

صدمتني برودة الموت، أبهذه السرعة صار جسدك بارداً يا يوسف؟ أهكذا عبرتَ من الحياة إلى الموت كما لو أنك تعبر شارعاً؟

يبدو أني شحبتُ وكاد يُغمى عليّ، لأني انتبهت إلى طبيب التخدير يقودني خارج الغرفة، ويضع قطناً مشبعاً بالكحول على أنفي. قال مؤاسياً بصوت بارد لا يحمل أي تأثر: بسيطة، بسيطة، ليس أول إنسان يتوقف قلبه أثناء العملية.

تكومت على نفسي كتلة من الألم والخجل، وصورة يوسف المُهمش والمشوه المنبوذ والفقير، لكن السعيد السعيد... ينتظرني حاملاً عقداً من الفتنة يفوح عبقه طارداً رائحة المجرور المقززة... رائحة حياتنا وأفكارنا...

لم يحضر أحد من أهله لاستلام جثته. وحدها زوجته وأطفالها الأربعة دفنوه.

ما لم أفهمه كيف تحوّل موت يوسف شيئاً يشبه الحياة، فكلما أوغل في عالمه البعيد الضبابي، أحس أني أتواصل معه أكثر فأكثر.

يوسف الذي ارتضى بتواضع وحب أن يكون كومبارس على الشاشة وفي الحياة، لكن لولاه لا يكتمل المشهد.

فخ الحب

امتلأت نفسها ذهولاً كما لو أنها تقف أمام لغز، ولم تجرؤ أن تعبّر عن حالتها النفسية أمامه، بل فضّلت أن تحتمي بالصمت لأن أية كلمة ستصدر عنها ستقوض كل هذا العالم الزائف بينهما. أدركا في تلك اللحظة أنهما بنيا صرحاً ضخماً من الأوهام، محاولاً كل منهما أن يوهم نفسه أن مابينهما حقيقي ورائع.

مجرد عبارة انفلتت منه جعلت قناع الوهم في علاقتهما يسقط كاشفاً حقيقة مُخزية: كم هما غريبان!

أقبلا من أقاصي الأرض ليلتقيا في باريس تحت وهم الحب. فجأة انقشعت الحقيقة أمامها كشمس غاضبة تشق غيوماً سوداء بشفرات نورها، وأدركت أنهما مجرد وجودين غريبين في باريس، قطبين متنافرين في شارع مونبارناس الرائع، وبدا الشارع يسبح في هالة من الغموض، بل بدا الزمن نفسه مجرد سراب. احتارت كيف تخفف من انقباض نفسها، وشعرت بغضبه وتوتره اللذين فشل في إخفائهما تحت ستار من الودّ المتوتر.

ظنّت أن ما حدث بينهما يشبه الأفلام، لكنها اعترفت لنفسها بعد لحظات أن قصتهما أغرب من الأفلام. وتخيّلت أنها لو شاهدت فيلماً

يصوّر علاقتهما لاتهمت المخرج بالمبالغة واللاواقعية. تأملته بحذر من زاوية عينها، فانكمشت روحها خزياً، من هذا الغريب؟! أهو الذي كتبت له كل تلك الكلمات المتوهجة بعاطفة ملتهبة، وتلهّفت للقائه؟ أهو الذي خططت واستماتت كي تقذف بنفسها من قرية ساحلية في سوريا إلى باريس لتلقاه؟

حلقها جاف، كم ترغب بشرب الماء، لكنها تخشى أن تطلب إليه الجلوس في مقهى، لا يزالان يسيران منذ ثلاث ساعات في شوارع مونبارناس وأزقتها.

تأملت المناظر الخلابة حولها باعياء متوتر، وهمست لباريس: اعذريني لستُ قادرة على الاستمتاع بجمالك.

كل ماحولها ساحر وباهر، لكنها تشعر بالانسحاق والمهانة، ترى هل يكفي أن تصف مابينهما بالورطة؟! يالقصورها في التحليل، فماحدث بينهما يحتاج إلى طاقم من المحللين النفسانيين.

احتمت بالسخرية، وحدها المتنفس من الاحتقان النفسي، فكرت في متعة خفية أن علاقتهما تفجّرت بعبارة، وتقوضت بعبارة.

تعرّفت إليه منذ أربعة أشهر من طريق وسيط الغرام الحضاري ـ الانترنيت ـ أحدث هذا الجهاز السحري ثورة حقيقية في حياتها كمدرسة للمرحلة الابتدائية في قرية علمتها فنون الضجر القاتل، وكانت تقضي ساعات أمام الشاشة تجري محادثات مع أشخاص في كل أنحاء العالم، بدت لها تلك المحادثات معجزة حقيقية.

إلى أن زلزلتها عبارة أتتها من رجل يعيش في لندن: أفكر في الموت

تفكيراً عميقاً. صدمتها تلك الكلمات المشحونة بقوة روحه الغامضة، وقررت تواً ومن دون تردد ألا تراسل غيره. كيف فجّرت تلك الكلمات كل تلك المشاعر القوية المتناقضة في أعماقها؟ ولم تشغل نفسها بتحليل ذلك التخلخل الذي أحدثته العبارة في أعماقها،

بل شعرت أن روحها متناغمة مع روحه بقوة هائلة، وابتدأت بينهما مراسلات غزيرة كطوفان. شحذت قواها المكبوتة منذ دهر لخوض علاقة لم تخفف شاشة الانترنيت الباردة من حرارتها، أحست كم ألهبته كلماتها الجامحة وروّعته عواطفها العميقة، المختزنة في أقبية روحها العميقة والمتخمرة كنبيذ معتق بخميرة الوحدة والمرارة، اللتين ينسكب طعمهما في كل شيء.

بسطا حياتهما أمامهما. عرفت أنه عراقي هجّ من بطش صدام إلى لندن، تزوج بانكليزية، وطلقها بعد عشر سنوات، وله طفلة تعيش مع والدتها، مولع بها حتى الجنون، ويتألم لأن أمها تربيها على احتقار العرب. وأخبرها أن أكثر من نصف عائلته أبيد أثناء حكم الدكتاتور. حدثته بدورها عن قريتها البسيطة التي تبعد مسافة نصف ساعة عن مدينة ساحلية جميلة ومنتهكة هي اللاذقية. وعن عملها كمدرسة في المرحلة الابتدائية، في المدرسة الوحيدة في القرية، وأنها بدورها مطلقة، بعد أن عاشت خمسة عشر عاماً في سجن الزوجية، لكنها لم تخبره أن سبب طلاقها هو عُقمها.

أي انقلاب حلّ في روحها. لم يخطر للمطلقة على أعتاب الخمسين أن روحها ستزهر متأخرة، وأن ربيعاً مباغتاً سوف يلقي بذور الأمل في

روحها، لتتفتح وروداً نضرة رائعة شغوفة بالحياة والحب، كانت تخرج من المدرسة وهوى غامض يحث خطاها، فتركض لاهثة إلى البيت، صاعدة الدرجات العشر بعصبية، ومن دون أن تغلق باب البيت وراءها، تجلس بشوق إلى الانترنيت متلهفة إلى كلماته، بل صارت تقبّل الشاشة كل مرة تجلس قبالتها، كما لو أنها وسيط حقيقي بينها وبين الحبيب الذي لم تره. كم بدت لها الحياة رائعة، وهي تفاجئها بكل هذا الحب الرائع في الوقت الذي فقدت الأمل، وأوصدت باب روحها ضد الرجل. أرسل إليها صوره، أحست بالخجل لأن وجهه المكتنز بجمال عربي، وشفتيه اللحميتين المكتنزتين حرضتا فيها شهوة عميقة، شهوة قوية ناضجة وراسخة لم تشعر بمثلها من قبل... فكرت أنها عاشت سنواتٍ طويلة ناسية أنها أنثى، في محيط يبتكر أساليب عديدة لتخدير المشاعر وخنقها.

صار غزله بها مفضوحاً، فهو يتمنى أن يقبّل جسدها، نقطة نقطة.

وأن يلتحم بها ويضمها بين ذراعيه أياماً ولياليَ... وليمت بعدها.

كانت كلماته تتحوّل في الحال سهام شهوة تخرق جسدها في أكثر المناطق حساسية.

خططا للقاء، لديها قريبة تعيش في باريس، ولديه كذلك صديق.

جمعت ثمن بطاقة الطائرة، والقليل من المال كحد أدنى لمصروفها الشخصي عن طريق الجمعيات الشهرية الأبدية للموظفين. لم تصدق أنها ستلقاه حتى بعد أن اشترت بطاقة الطائرة. لكنها انتبهت إلى أنها استعادت قدرتها على الضحك، بل صارت تقابل كل شيء بالضحك، تضحك لشروق الشمس، وللضجيج، ولمنظر طفل يعبر شارعاً. ولم تعد

رؤية امرأة حامل تثير في روحها القهر والنقمة، حتى أكوام القمامة في الشارع ما عادت تؤذيها، بل تنظر إليها باسمة كما لو أنها علامة من علامات الحياة!

اتفقا أن يكون أول لقاء بينهما عند قوس النصر في الشانزليزيه. افتُتنت بباريس، أحست بها مدينة مرهقة من شدة جمالها. لكن في قاع افتتانها بالجمال أدركت أن مشاعرها تُهرس وتُسحق، لأنها لم تستطع أن تمنع نفسها عن المقارنة بين سحر باريس، ومظاهر القبح والقذارة المتزايدة هناك في بلدها التعيس.

حين التقته احتاجت إلى وقت كي تدرك أنه هو الحبيب. وجدت نفسها تردد لنفسها أنه هو من لحم ودم، من لحم ودم... لكنها أحست بارتباك، بل شحذت قواها كي تلبس ذلك الرجل - الذي ظل روحاً وكلماتٍ طوال أشهر ـ جسداً.

أدرك كل منهما أنه أرسل إلى الآخر صوره العائدة إلى ما قبل عدة سنوات، انتظرت أن يقول لها إنها أجمل من الصور لكنه لم يقلها. أخبرته أنها للمرة الأولى تسافر وتركب الطائرة، وأنها لولاه لماتت في قرية بائسة، الحياة فيها عبارة عن يوم يتكرر إلى الأبد.

في مقهى رصيف يغص ببشر من جنسيات مختلفة، جلسا يرشفان النيسكافيه، أحست أنها هناك تشرب عدة فناجين من القهوة لها طعم السأم المركز. أحست أن من واجبها أن تحدثه عن حياتها هناك، تدفق الحديث ناعماً سلساً، ولاحظت أن صوتها غدا أكثر عذوبة ودفئاً. فجأة انقضّ عليها بقبلة مفاجئة هارساً شفتيها، بوغتت وشعرت بالأذى، لكنها

خجلت أن تبعده عنها. ألم تقذف بنفسها من قريتها إلى باريس لتلقاه؟ لكن لم تتوقع أن تسير الأمور على هذا النحو، فهي تنتظر أن يتناغما، وأن يسري دفء وود بينهما ثم يأتي الغزل. آذتها شهوته التي فارت في الوقت الذي تحتاج إلى حنانه وإصغائه.

بعد ساعة على لقائهما الأول بدا القلق على وجهه، وقال إن عليهما أن يلتقيا في غرفة في فندق ليضاجعها. وأخبرها أن أخاه دقة قديمة وأفكاره رجعية رغم أنه يعيش في باريس، وبأنه يمنعه أن يصحب معه صاحبته. أحست بطعنة ألم حين وصفها بصاحبته، ولم تتمالك عن التعليق، لِمَ لا تقول حبيبتك؟

أشعل سيجارة ورد على عبارتها التي ترشح بالألم ببرود: لا فرق.

أحست أنها وقعت في فخ ومن المستحيل التراجع، إنها في قلب باريس، في قلب المحنة، ولا مجال للتراجع. أوحت إليه أنها تتفق معه فكرياً. تمشيا في الشانزليزيه يحيط خصرها بذراعه. وجدت نفسها منكمشة ومتوترة، فتشجعت وأحاطت خصره بذراعها، بدت منفصلة عن المشهد، وأينما نظرت كانت قريتها البائسة تتخايل لها، أحست بإحباط إذ أنه لم يحضر لها هدية، بينما أحضرت له قلماً جميلاً وعلبة حلويات فاخرة. شعرت بجوع، وأملت أن يدعوها إلى الغداء، لكن لم يخطر له حتى أن يسألها إن كانت جائعة أم لا. لم تعد تنصت إلى حديثه، بل شغلها سؤال ملح: ألا يعرف أن اليورو يعادل ٦٥ ليرة سورية؟ احتدت، تقلّصت معدتها، نظرت خلسة الى ساعتها، إنهما يتمشيان منذ ثلاث ساعات. أحست بذل الجوع، لدرجة شعورها أن ثيابها غدت

فضفاضة عليها. تلاصق جسداهما وهما يسيران. ولم يثر فيها التماس سوى إحساس غريب بالسخرية والشماتة. لكنها لجمت أي انفعال أو تعليق يمكن أن يصدر عنها. عليها أن تعيش اللحظة، وحوالى العصر كادت تنهار من التعب والجوع، فاقترحت عليه أن يأكلا شيئاً، وقررت أن تغامر وتدفع ثمن الوجبة.

وما إن وضع النادل أمامهما صحن الخبز وأربع قطع من الزبدة، حتى التهمت الخبز بعد دهنه بالزبدة، وأفقدها الإرهاق والتوتر آداب المائدة، فلم تبال بدس قطعة إثر قطعة من الخبز في فمها!

استأذنته لتدخل الحمام، وهناك لم تتعرف إلى وجهها. لأول مرة تبدو لها تجاعيده بذلك الوضوح السافر، صفعها وجهها المرهق حتى الذبول. فكرت أن ما تشعر به ليس مجرد إرهاق، بل ذل حقيقي. ترى ما مصدر هذا الشعور؟

صرخت: كفى، لا أريد أن أحلل أي شعور الآن.

حين عادت إليه راسمة ابتسامة المبالغة، سألها فجأة هل لا تزال تحيض؟ لم تفهم في البداية سؤاله، فقال: أقصد ألا تزال تأتيك الدورة الشهرية؟

رمقته ببرود، ولم تجب، شعرت أنها بدأت حينذاك ترى الجانب الآخر من شخصيته الذي لم تتمكن قطّ من ملامسته عبر الانترنيت.

ثم سألته بسخرية واضحة: لِمَ هذا السؤال؟

رد ضاحكاً: سؤال عادي، مجرد سؤال.

وحين سألهما النادل ماذا يشربان؟ صعقها حين طلب الماء، وأعقب

طلبه لتكن زجاجة ماء صغيرة لو سمحت. بحلقت به متفاجئة، وذكرته أنهما طوال أشهر على مراسلاتهما الملتهبة كانا يخططان معاً كي يشربا نبيذاً فرنسياً فخماً يليق بعواطفهما. أحس بالحرج وادعى أن معدته تؤلمه لأنه تناول عشاءً دسماً ليلة البارحة.

قال: حسناً اشربي أنت نبيذاً.

أحست بقرف، رفضت بإصرار، وقالت: أظن أن الماء يناسب هذا اللقاء أكثر!

لم يعلّق. نظر إلى النادل وطلب صحناً من حساء البندورة، بينما طلبتْ أنا كريب الدجاج.

منهارة من التعب والخيبة ومصرة على استنهاض مشاعر دافئة وجميلة من روحها، لكن عبثاً، المرارة، والمزيد من المرارة. رمقت باشتهاء الطاولات المجاورة التي تعج بألوان الأطعمة اللذيذة التي تتوق إلى تذوقها.

تناولا الطعام بصمت، فكرت بسخرية: إنه الرجل السائل، شرب الماء وحساء البندورة، ولم يطلب شيئاً آخر.

وحين سألهما النادل أي نوع من الحلوى يرغبان، أسرع بالرفض مدّعياً أنه لا يطيق الحلوى، بينما طلبتْ الكاتو مع الشوكولا.

عادت إلى بيت قريبتها منهارة من التعب. إنه يوم المشي العالمي كما سمّته!

وأغفت قبل أن تضع رأسها فوق المخدة، ومن شدة إرهاقها لم تفكر بشيء.

صباح اليوم التالي استيقظت على صوته، سرت كهرباء قوية في جسدها لأن فحيح شهوته اخترق أسلاك الهاتف وكهرب جسدها. سألها بنفاذ صبر إن كان باستطاعته أن يزورها في شقة قريبتها، قالت: مستحيل.

بدا غاضباً وصرخ: نحتاج إلى غرفة.

التقيا في مونبارناس.، وقبل أن يتبادلا التحية أسرع يعصرها بين ذراعيه ويجس نهديها، ثم أمسك راحة يدها ودسها في جيب بنطاله لتتحسس عضوه المنتصب بغرور ونفاذ صبر. غريب لِمَ لا تشعر بأية رغبة، بينما الرغبة كانت تتأكلها وهي قبالة الشاشة الزرقاء؟

فجأة انفجرت بضحك عاصف أغضبه، ولم تجرؤ أن تخبره أن سبب ضحكها، هو تذكرها أنها التهمت كميات هائلة من الجبن والزبدة والمربى، قبل أن تلقاه تحسباً للجوع الذي ينتظرها بالتأكيد. بل بررت ضحكها بأنها تخيلت لو أن جيرانها ومعارفها في القرية يشاهدونها الآن تتبادل القبلات مع عشيقها في الطريق.

فُتنت بمونبارناس وقررت شراء بعض التحف الصغيرة. لكن بالكاد نقودها تكفي. جلسا في مقهى رصيف، طلبت كابوتشينو، وطلب هو الاكسبريسو، بدا متوتراً، ومتذمراً، وشكا أن أسعار الفنادق باهظة، وأنهما لن يحتاجا الغرفة أكثر من ساعتين، وأن أجرة غرفة لا تقل عن ستين يورو. غاص قلبها في هلام من الألم اللزج وهي تصغي إليه، وتساءلت ألا يخجل من أن يعبّر لها عن حقيقة أفكاره؟ ألا يدرك كم يجرحها كلامه كما لو أنه يقول لها إنها لا تستحق أن يدفع ستين يورو

ليختلي بها! بل أحست أنه يطلب منها بأسلوب غير مباشر أن تساهم في أجرة غرفة الفندق.

بدأت تحتقره احتقاراً ودياً، لكنها تشعر أنها مشلولة نفسياً. وحين تفقدت حقيبتها كي تدفع للنادل هوى قلبها، فقد أضاعت نقودها. دفع هو الحساب وشيء من تذمر يرشح من ملامحه، ترى هل أضاعت حقيبتها في أحد الدكاكين التي اشترت منها تحفة بسيطة رخيصة؟

لم يعرض عليها أن يعطيها المال، حتى كقرض. ولم يعلق بكلمة واحدة على فقدانها نقودها. بل أحست أنه يكظم غضباً تفجّر في روحه سببه فقدانه الأمل بدفع نصف أجرة الغرفة في فندق.

المكان يبث موسيقى ساحرة، أحست وكأنها أشبه بزخرفة. وجدت عزاءها في الموسيقى، وتجسدت الموسيقى كنقوش، كنقوش الزمن على صفحة وجهها المُتعب. وتدفقت الأسئلة في رأسها، بل انفلتت من ثقب ما، أسئلة لا تستطيع الإجابة عنها لأنها لا تزال في قلب المعمعة، احتارت كيف تخفف انقباض نفسها.

عجباً أإلى هذا الحد كانت تعاني الحرمان العاطفي، كي تسقط عمداً في وهم الحب أو فخ الحب؟ فتنتها تلك العبارة، أجل فخ الحب. فمن هذا الغريب الذي فجر روحها بعبارة (أفكر بالموت تفكيراً عنيفاً)، كيف بنت على هذه العبارة قصراً من الأوهام؟ وراكمت ديوناً عليها كي تسافر وتلتقيه؟

استأنفا رحلة المشي، سألته ساخرة وقد فقدت أية شهية لخلق حديث معه، يبدو أنك تحب المشي، أجاب: جداً.

حدثت نفسها بسخرية: هيا انطلقي في ماراتون المشي!

كان مثاراً بشدة وغاضباً على قريبتها وصديقه كونهما منعا وصالهما، لكنها في أعماقها أحست بسعادة، بل فرحت لأنها أضاعت نقودها. إنها لا تريد أن تضاجعه برغم حرمانها العاطفي المديد. لا تريد رجلاً يريد أن يخرق جسدها، من دون أن يلج روحها أولاً. كيف ستضاجع رجلاً لا يقف بجانبها في ورطتها وقد أضاعت مالها، ويتجاهل جوعها وتعبها؟ ألأنه بخيل، أم لأنه لا يريد سوى مضاجعتها؟

تمشي بجانبه مثقلة بالخيبات، مستعرضة بخيالها فيض الرسائل التي تبادلاها طوال أربعة أشهر، أدهشتها عواطفها المبالغ فيها، وأشواقها المحمومة. أحست أنها مصابة حقاً بأصعب مرض في العالم: الحرمان. ياه إنها مجرد امرأة أتعبتها عواطفها غير المتحققة، وتوقها العميق والجامح إلى رجل دافىء وحنون ومتفهم.

عاشت عمرها بانتظار سراب اسمه الحب الحقيقي، وكلما ألحت في تحققه أمعن في الإفلات منها.

إنه مجرد قشة تعلقت بها، كغريقة في بحر من السأم والحرمان العاطفي. أحست بتعب شديد في كتفيها، عجباً يفترض أن تحس بألم في قدميها، لكنها آمنت أن خيبات عمرها تلقي بثقلها على ظهرها!

هل تجرؤ وتقول له إنها لا ترغب بمضاجعته؟ كانت تتظاهر أنها تنصت إليه وهو يشتم كل شيء، صدام حسين، والشعب العراقي الخنوع، والعراقيين الذين يعيشون في الخارج، والحكومات العربية. يشتم أميركا، والغرب. كل كلامه قائم على الشتائم والرفض والغضب، لا

يطرح بديلاً. لكنه حين قال إن الشعب العراقي يتميز من غيره من الشعوب العربية بأنه يجرؤ ويقول: أيري في كل المقدسات. انتفضت من غثيان حاد عصف بأحشائها.

صرخت: كفى، عيب هذا الكلام. إنها إهانة للشعب العراقي وليست مديحاً له.

تأمل ألمها بسخرية وبرود وقال: مسكينة أنتِ، تعيشين في بؤرة التخلف.

ردت بسخرية جارحة: وأنت أين تعيش؟!

جرحته سخريتها، لم يهمها ماذا يحلل وكيف يتبجح، كانت تفكر بأن هناك فرقاً شاسعاً بين الحب وتسول الحب. ولن تسمح لذل الحاجة إلى الحب أن يعفر إنسانيتها وأنوثتها بذل الشهوة. اللعنة على الحرمان، اللعنة على الحرمان، إنه أصعب من السرطان.

طلبت إليه أن يوصلها حيث تعمل صديقتها كي تقترض منها مالاً، لم يمانع، تأملته ببرود كم هو خسيس! وفي عربة المترو المزدحمة التصق بها، سمعت فحيح شهوته يلفح عنقها من الخلف، فانتابها غثيان، كان يضغط عضوه المثار على ظهرها وهي جامدة كتمثال. لم تكلف نفسها النظر إليه أو حتى التعليق على كلماته الشبيهة بالفحيح وهو يهمس في أذنها: يا إلهي متى سأضاجعك؟ أكاد أجن.

أجلت جوابها حتى توقف المترو، وانفلتت من أسر شهوته الزنخة، نظرت إليه وهي تمسح وجهها المحتقن بغضب مكبوت: أتعرف، لا يستحق الأمر أن تدفع ٦٠ يورو، ومع امرأة لا تحيض.

انفجرت بضحكة غيّبها ضجيج المترو، الذي أحست في تلك اللحظة بأنه هدير حياة لاهثة ترفض المهانة.

القاتلة

لم تكن وفاء مراهقة عادية، فخلف وجهها الهادىء العذب الممتلئ والوردي، يقبع عذاب شرس تجهل وفاء التي لم تكمل الخامسة عشرة كنهه، ولا تعرف كيف تحلله.

كانت آخر العنقود بين دزينة من الأخوة والأخوات من أم واحدة، والدتها التي تزوجت قبل سن البلوغ، والتي أخذت تنجب طفلاً إثر طفل مع عدد من حالات الإجهاض، والتي كانت تفقد ضرساً بعد كل ولادة، تحوّلت إلى كائن لايمكن أن يقال إنه بشري. بل تحسها وفاء أشبه بكيس منتفخ، وكم تحرض تلك الأم الألم والخجل في نفس وفاء التي تطيل تأملها بقامتها القصيرة المحنية، وتأوهاتها من أوجاع مفاصلها المزمنة، ويديها المشققتين بأظفارها المتقصفة المهملة، ووجهها الشبيه بقرص عجين لا تعبير فيه، وفمها الذي لم يبقَ في جوفه إلا بضع أسنان بنية متخلخلة فتتساءل بحزن: أهذه أمي؟

تعيش الأسرة في غرفتين مع فسحة أشبه بشرفة واسعة، تستخدم أيام الصيف لينام فيها ذكور العائلة أما في الشتاء، فكانت الأجساد تتكوم فوق فرشات متلاصقة، في الوسط ينام الصغار، وعلى الأطراف الكبار مع الحرص على الفصل بين الجنسين.

لا تعرف وفاء إخوتها جيداً، فالعديد من أخواتها تزوجن وانشغلن بأطفالهن، ومعظمهن عشن بعيدات عن الأسرة، وأربعة من أخوتها الذكور هجّوا بحثاً عن الرزق في البحر، وانقطعت أخبارهم، ولم يبقَ في البيت إلا وفاء واثنان من أخوتها الذكور اللذين كانا يقضيان معظم وقتهما خارج المنزل.

لاتذكر وفاء على وجه الدقة متى بدأت أزمتها تتفاقم، فحين وصلت إلى الصف الخامس الابتدائي أخرجها والدها من المدرسة برغم تفوقها، لأن الأب الأمي والفقير يؤمن أن التعليم يخرّب عقول الفتيات ويدفعهن إلى الانحراف.

ولم تفلح توسلات وفاء، ولا تدخّل مدرّستها التي رجت الأب أن يسمح لابنته المتفوقة أن تكمل تعليمها في إقناع رجل أهم صفاته العناد. أما الأم فلم تنطق بكلمة، بل كانت تتفرج على دموع ابنتها بصمت من دون أن تؤاسيها حتى بكلمة.

بكت وفاء أياماً طويلة مفتقدة الدراسة وصديقات طفولتها ومدرّستها، وكانت ترنو ساعات إلى البعيد متخيلة أنها تلعب في الباحة، وتكتب وتمحو على السبورة.

والدها يعمل أجيراً لدى بائع للخضار، وأحياناً يسرح بالبضاعة في الشوارع ليعود إلى البيت مهدوداً من التعب. تعرف أن والدها قد وصل من سيل الشتائم الذي يسبقه، فهو نادراً ما يتحدث بل يشتم الفقر، والخلفة، والزواج، وحظه النحس. يدخل البيت ويرفس بقدمه الباب الخشبي العتيق الذي تخلع من كثرة الرفس. ينزع حذاءه المطاطي فتفوح

رائحة قدميه خانقة. لا تجرؤ زوجته أو ابنته أن تطلب إليه أن يغسل قدميه، تقاوم وفاء غثياناً حاداً يعصف بأحشائها، فتهرب إلى فسحة الدار، ليس من روائحه فقط، بل من شكله المستفز. إذ كان يحلو له الجلوس أرضاً شبه عارٍ بسرواله المصنوع من القماش الرقيق مع فتحة في الوسط، يتربع أرضاً ويطلب إلى وفاء بصوتٍ كالجعير أن تعد له العشاء، وتقدمه له على طبق من قش، فيجلس على الأرض متربعاً وعورته شبه مكشوفة من فتحات السروال الواسعة.

تشعر المراهقة بتوتر فظيع يجعل جسدها البض يرتجف كما لو أن كهرباء تسري فيه. توترها يشبه الشلل، تجد نفسها في شركٍ لا مجال للفرار منه، فهو والدها مصدر وجودها، والله يوصيها بطاعة الوالدين ومحبتهما، وستحرق بنار جهنم إن لم تطع والدها وتحبه. لكن كيف تحبه وهو مقرف ولا يحترم مشاعرها، ويجلس شبه عارٍ أمامها مستعرضاً بلذة عورته؟ تجد نفسها رغماً عنها تسترق النظر إلى عورته، ويتضرّج وجهها بدم الخجل والإحساس بالعار، وهي تقترب من عالم محرّم. وتلامس المحرمات الجنس، الشهوة، الغواية، الإثم، الخطيئة، الرجل، العقاب، النار، جهنم... تحف بها كل تلك المعاني كأشباح سوداء تحاصرها وتخنقها. لم تفهم وفاء عنف العواطف المتناقضة والعنيفة التي تعتلج في صدرها، فهي عاجزة كلياً عن إنقاذ نفسها من دنس شهوة الأب.

لم يكن الأب المتخلف والأمي يفكر في التحرش بابنته، فهو يعتقد أنه مؤمن ويمارس الفروض الدينية كاملة، وحلمه الوحيد في الحياة أن يحجّ قبل أن يموت. لكنه مولع - من حيث لا يدري - بخرق قوانين الحياء

والأخلاق، ويشعر بمتعة هائلة وهو يتأمل اضطراب تلك المراهقة، وبلبلتها، وتضرج وجهها، وهي تسترق النظر إلى عورته. ويحس بالنصر وهو يتفرج على انهيار مقاومتها، يشعر كيف يدغدغ مشاعرها الخام الغافية التي لم تستيقظ بعد، ويتعمد ممارسة سطوة أكبر عليها فيهرش خصيتيه ويحك عضوه، ويغيّر أوضاع جلوسه بطرق فاحشة والمراهقة المشلولة تراقبه من دون أن تعرف ماذا تفعل، فهو البابا، الذي أوصتها الديانات السماوية بحبه وطاعته.

لا تنسى يوم طلب منها ذات يوم أن تسند له السلم الخشبي لأنه سيصعد إلى السقيفة، كان يلبس عباءة تستر جسده العاري، عرف أن الصغيرة سترى عضوه، أطال الوقوف على الدرجة الأخيرة من السلم مباعداً بين فخذيه. يومها هربت وفاء من البيت، وبكت بحرقة تحت شجرة حنون، وتمنت من كل قلبها أن يموت والدها أو تموت هي، وفي المساء ضربها بوحشية لأنها هربت من البيت.

لم تكن وفاء تملك المعرفة الكافية لتقيّم ما تعيشه، ولتعرف ما يجري بالضبط في أعماقها، تشعر فقط أنها ذليلة ومسحوقة كما لو أن حذاء يدوس رقبتها. ولم تدرك أن والدها فاسد وحقير، خاصةً حين ترى أمها لا تعترف، ولا تجرؤ أن تعلق بكلمة واحدة على تصرفات زوجها.

تشعر أن حياتها ثقيلة، وزمنها لا يمضي بسلاسة، فهي تصارع كل لحظة قلقها ومخاوفها، بل صارت ترتعب من استيقاظ وحش الغريزة في جسدها، متخيلة رجلاً ذا فحولة خارقة يطرحها أرضاً ويضاجعها.

ما كان يؤلمها هو الشعور أنها تحت سيطرة والدها تماماً، أين عساها

تذهب إذا فرّت من البيت؟! بل حاولت أن تقنع نفسها أنها تظلمه وأنها واهمة، وأن نيّاته حسنة. فهو لم يتحرش بها، ولم يلمسها، ثم أية جريمة أن يجلس متربعاً لابساً سروالاً فقط، ألا يحق له أن يتصرف بحرية في بيته؟!

لا يمكن لمراهقة صغيرة أن تفهم أن والدها يمارس اغتصاباً نفسياً عليها، ليتها تستطيع أن تبوح بعذابها لأحد، وجدت عزاءها في الصلاة، وفي قراءة القرآن بكثرة. لكنه هو أيضاً يصلي! عجباً، البريء والمجرم يصليان للإله ذاته؟!

ما الذي يريده منها، وهو يجبرها أن تجلس قبالته وهو يتناول طعامه، وروائحه المقرفة تفوح ملء المكان، وتزيد من إحساسها بالمذلة والاختناق، كانت تقرف من طريقته في تناول الطعام إذ يلوث أصابعه العشر، وينكش أسنانه بأظفاره الطويلة الوسخة، ولا يجد أي حرج أن يتجشأ أو يضرط أمامها.

وجدت وفاء متنفساً حين أخذ يرسلها عدة ساعات كل يوم، لتعمل خادمة لدى زوجة ولي نعمته، وبرغم تعبها من العمل المرهق، فقد اهتدت وفاء إلى انفراج نفسي كبير، وهو التدخين. كانت ربة المنزل مدخنة، وتمكنت وفاء من جمع أعقاب السجائر، راحت تسرق بضع سجائر وتدخنها بشراهة ومتعة كبيرة.

ثم صارت تشتري الدخان الرخيص، وتجلس في أوقات الفراغ، تدخن وتدخن كما لو أن غاية وجودها التدخين. كان والدها يأخذ كل (ماهيتها)، ولا يترك لها سوى ملاليم قليلة للمواصلات. وحين طلبت

إليه أن يترك لها نصف راتبها على الأقل انهال عليها ضرباً، صفعها بوحشية على وجنتيها، فسقطت وقد فقدت توازنها، ثم جلس فوق ظهرها، منتشياً بانهيارها وزادت صفعاته وحشية، لكن ما آلمها أكثر من الضرب إحساسها أنه يضغط أليتيه على ظهرها.

الأم الشبيهة بكيس فارغ تراقب ما يحصل بعيون ميتة.

لم يعد من عزاء لوفاء سوى حلم وحيد أن يموت والدها، يا للراحة العظيمة التي تشعر بها حين تتخيل أن حياتها خلت منه، خاصةً بعد أن سقطت ضحية كوابيس بأنه يغتصبها فتفيق من نومها مذعورة.

أدمنت وفاء التدخين بسرعة، كانت تطلق سحب الدخان من فمها، وخيالها يفرز صوراً وحشية بأنها تطعن والدها بسكين، أو بأن سيارة تدهسه وهو يجر العربة الثقيلة الطافحة بالخضار. كانت معظم تخيّلاتها بأنها تطعنه بين فخذيه، أو تقطع عضوه وترميه للكلاب.

الشيطان في ثوب أب، هذا هو والدها، أو هكذا تحسه، كم تشعر بالاشمئزاز والقرف حين تتأمله! كيف يتعامل مع الناس باحترام مستعملاً ألفاظاً تفخيمية، تتساءل بسذاجة: كيف يستطيع أن يكسو نفسه بهذا الثوب المخادع؟ إنها تكرهه ليس لتحرشه الجنسي الصامت والسلبي بها، من خلال قتله لروحها ومثلها العليا التي تشربتها في المدرسة ومن الدين، بل لأنه يضربها كل مرة يراها وهي تقرأ. يريدها أن تنسى القراءة، يجب أن تكون مثل أمها، مجرد رحم مطعون بقضيب.

حين بلغت وفاء السابعة عشرة، غدت روحها متورمة بسرطان القهر والغضب ولم تعرف أنها ستتحول إلى قاتلة. كانت مدعوة إلى حفل

زفاف ابنة ربة عملها، أهدتها المرأة ثوباً جميلاً لتبدو بمظهر لائق أمام المدعوين، غصت وفاء وهي تعي أنها في عمر العروس، لكن آه ماذا تستفيد إذا فتقت جراح روحها؟

لبست وفاء الثوب الجميل الذي يكشف عن عنقها البض وأعلى صدرها، وأفردت شعرها الكستنائي الطويل على ظهرها، ورشت من زجاجة العطر التي أهدتها إياها العروس، في تلك اللحظة، وحين همت وفاء بوضع الحجاب على رأسها دخل الشيطان، رأى ابنته فبحلق بها مبهوراً، أسرعت ترتدي معطفها وتغطي رأسها فأمرها أن تحضر له العشاء كالعادة، فقالت إنها ذاهبة لأن سيدتها بانتظارها، ولن تتأخر عن حفل العرس.

أخذ يشتم ويلعن، وهددها بالانهيال عليها ضرباً إن لم تحضر له العشاء. صرخت وفاء بالمرأة الميتة الجالسة في ركنها كصنم، أمي، حضّري العشاء لزوجك.

هجم عليها كوحش وهو يعوي من الغضب، أتستخفين بي ياقحبة؟ وانقضّ عليها كوحش جائع، لكنها أحست بقوة غريبة هذه المرة فرفسته بكل طاقتها بين فخذيه، فركع يئن من الألم، وقبل أن يتمكن من الفرار التقط قدمها فسقطت أرضاً، فأخذ يعضها بشراهة من عنقها وخديها.

جنّت من الغضب، وزاد من جنونها أن الأم كانت تراقب ما يحدث كبلهاء، بل لعلها غدت معتوهة حقاً. رجت وفاء والدها أن يسامحها، وأن يسمح لها أن تحضر له العشاء، فأفلتها وعضاته الوحشية تلهب عنقها

ووجهها. ولم تنتبه كيف اتجهت إلى المطبخ غير واعية ماهي مقدمة عليه، وكيف استلت السكين الذي تذبح به الدجاجات، وغرسته في خاصرته وهو منحنٍ فوق المجلى يغسل وجهه المتسخ.

أية قوة هائلة جعلت السكين ينغرس في خاصرته حتى نصله؟ ندّت صرخة خرساء عن حنجرة أم، حنّطها الذل.

أحست وفاء أنها برئت من مرض خبيث، لم تكن خائفة ولا مضطربة، بل شعرت أن الحياة تبتسم لها، وأن الله سيطبطب على رأسها مُسامحاً.

وقبل أن تفرّ هاربة من جحيم أسرتها، خطفت حجابها وقرآنها الصغير وأطلقت ساقيها للمجهول.

الحبيب

للفجر أنين عذب يوقظه كل صباح، من سيصدقه إذا وصف لهم أنين الفجر، الذي هو ذاته صوت أشواقه للحبيب، عمر ابنه البكر الذي صار اسمه الحبيب منذ ذلك الصباح المشؤوم الذي اعتقل فيه.

منذ اعتقال عمر صار عاجزاً عن لفظ اسمه، استبدل اسمه بالحبيب. لم يفهم سر تلك الإعاقة، ولماذا يعجز عن لفظ اسم ابنه... انحفر ذلك الفجر بذاكرته إلى الأبد،

يذكر تماماً شعاع الضوء الواهن الذي داعب أجفانه، فتح عينيه ثم انهالت أصوات أقدام تركل باب البيت. أسرع يفتح الباب حافياً وقلبه يخفق بقوة من الذعر. كانوا خمسة رجال مدججين بالأسلحة يطلبون ابنه، ندت عنه آهة دهشة، اعتقد أنهم أخطؤوا العنوان.

كان عمر لا يزال نائماً، فمن عادته أن يدرس ليلاً حتى ساعة متأخرة. عُمر فرحة حياته، طالب الطب المتفوق في سنته الدراسية الأخيرة. توقف مكانه شاعراً أن روحه قد سُحبت منه، وهو يراهم يجرون ابنه بتهمة انتمائه إلى تنظيم سياسي سري معارض.

لم يكن أحد من أفراد الأسرة يعرف بانتماء عمر إلى تنظيم سياسي

سري. رجاهم عمر أن يسمحوا له بارتداء ملابسه، لم تقوَ الأم على المشي صوب ابنها فركعت وأخذت تولول عمر، عمر. اقترب عمر من أمه، وقبّل رأسها قائلاً : لا تخافي، ثم نظر إلى والده وعيناه تلمعان لمعاناً غريباً، همّ أن يقول شيئاً إلا أن الصوت اختنق في حنجرته. لكن والده فهم تماماً ماذا تعني النظرة، إنه يرجوه ألا ينهار.

أول فكرة عبرت ذهن الأب بعد اختفاء ابنه : أتراها صدفة مُلغزة أن يتزامن تقاعده مع اعتقال ابنه؟ كم كان يخشى الفراغ والكآبة بعد التقاعد، أيهديه القدر تلك الهدية المسمومة التي ستشغل كيانه وحياته طوال فترة التقاعد؟

كان قد مضى على تقاعده خمسة أيام حين اعتقل عمر، ورغم خوفه من الفراغ والضجر فقد كان راضياً، شاعراً أن الحياة أنصفته حقاً. عمر سيصبح طبيباً لاحقاً وبناته الثلاث متفوقات في دراستهن وعلى وشك التخرج من الجامعة...

إنه سعيد حقاً وهو يتأمل ربيع أولاده المُزهر، الذي يغلب خريف شيخوخته، لكن اعتقال عمر نسف كل شيء في حياته، فقد ألقى هذا الاعتقال ظله ليس على المستقبل فحسب بل على الماضي أيضاً، إذ صار عليه أن يعيد فهم حياته على ضوء اعتقال ابنه.

لا ينسى اللحظات الأولى من اعتقال عمر، أسرع إلى غرفته، سجد على الأرض وأخذ يتنشق بعمق منامة عمر التي هصرها بين يديه. أخذ يغبّ الرائحة بقوة كما لو أنه يقبّل ابنه، لا يزال القماش دافئاً. ثم لمح قلماً أخضر قرب حذاء عمر، فابنه مولع باللون الأخضر، وحين يدرس يضع

خطوطاً تحت الأفكار المهمة، زحف حتى تمكن من التقاط القلم، شمّه ووضعه في جيبه.

الحزن كالجراد يحرق كل المشاعر الحلوة في النفس، فبعد أيام قليلة على اعتقال ابنه ما عاد يعرف وجهه في المرآة، شوّه الألم ملامحه وأعطاها جموداً وصلابة.

في الواقع لم يعد يشعر بجسده قطّ، كما لو أنه انفصل عنه، ولم ينتبه أنه فقد عدة كيلوغرامات من وزنه خلال الأيام الأولى لاعتقال عُمر، ولم يهتم لإلحاح بناته أن يأكل ويحلق ذقنه، كان ينظر إليهن باستغراب وانزعاج.

بعد أشهر على اعتقال ابنه، تملكته حالة عجيبة، إذ صار لديه هوس في اقتفاء آثاره، فيجلس ساعاتٍ يقلب كتب الطب ويتفرج على خربشات ابنه، والعبارات التي وضع تحتها خطاً بالأخضر، ثم تنفجر الدموع من عينيه تاركة بقعاً على الورق. وحين سألته ابنته ذات يوم : بابا ماذا تقرأ في هذه الكتب؟ قال: أقرأ روحه.

ماتت زوجته بعد أربعة أشهر على اعتقال ابنها، أكد له الأطباء أن سبب وفاتها احتشاء عضلة قلبها. لكنه نظر إليهم هازئاً وقال: لم يقتلها سوى الحزن.

مضى عامان على غياب عمر، وبرغم الوساطات الهائلة التي كلفته مالاً كثيراً، لم يعرف أين هو؟ في أي سجن؟ هل هو حي أم ميت؟ ماهو جرمه الحقيقي؟!

وجد نفسه يدشن حياة جديدة قوامها الانتظار، فالليل ينتظر النهار،

والنهار ينتظر الليل، وهو ينتظر ابنه. عليه أن يتعايش مع حالة سماها وَله الانتظار، أمله الوحيد في الحياة أن يضم ابنه مرةً واحدةً بين ذراعيه ثم يموت.

وَله الانتظار، هذا ما صاره تماماً، فكثيراً ما يجد نفسه وهو وسط الأقارب والمعارف، مصغياً إلى ثرثرتهم ومحاولاتهم تخفيف ألمه، يترك الجميع، ويهرب إلى مكان ما، منقاداً لحضور ابنه، لاهثاً وراء شعور أكيد يدله أن روح عمر إلى جانبه، يحسّها حول جسده ترفرف كفراشات من نور.

وكم من المرات جرح ذقنه وهو يحلقها لأن وجه عمر يتجسد في المرآة ضاحكاً.

في السنوات الأولى بعد سجن وحيده، وجد ملاذاً في الهروب الى الماضي مستذكراً طفولة عمر، مستعيداً صوره في خياله، لكن السنوات الثقيلة البطيئة، جعلته يفقد القدرة على الركض في تخيّلات الماضي مستمداً منها عوناً لروحه.

ثم ابتدأت حالات من الفزع الشديد تنتابه وهو نائم، فيستيقظ مذعوراً متخيلاً أن عمر يعاني آلاماً شديدة. وكان يؤمن أن هذه الكوابيس لها دلالاتها، وأنها تعني أن عمر يعاني ألماً فظيعاً.

اعتقدت ابنته الكبرى أنها ستفرحه وتعزيه حين سمت ابنها البكر عمر، وأملت بناته أن تتلاشى عقدة خوفه واضطرابه من لفظ اسم عمر. لكنه لم ينادِ حفيده باسمه قطّ.

أي وجع تحسه يا أبي لو لفظت اسم عمر؟ سألته ابنته.

رد عليها بابتسامة بطيئة ثم هرب بنظرته إلى النافذة.

مع مرور السنوات على غياب الحبيب، تحوّل وَلهُ الانتظار إلى حالة حلم. حلم ضبابي مستمر طالما هو صاح، فبعد كأس العرق الثالثة يتكثف حضور عمر، ويشعر أن بإمكانه أن يتحدث إليه ويسمع كلامه. وأحياناً يمد يده في الفراغ متلمساً ملامح الحبيب، ثم يناديه بأنفاس لاهثة : حبيب البابا، حبيب البابا.

في عيد ميلاد عمر، كان يلبس بذلته الأنيقة منذ الفجر، ويهيم في الشوارع مناجياً ابنه بأرق الكلام، واعداً إياه أن قلبه يحدثه أنه سيخرج قريباً من السجن، وسيحتفلون بعيد ميلاده وبتخرجه من كلية الطب في وقت واحد، يرجوه أن يتحلى بالصبر وينتظر، ثم يقصد المقهى الذي اعتاد عمر أن يرتاده، يدخن الأركيلة ويلعب الورق مع أصدقائه، يجلس ساعتين في المقهى، يطلب الأركيلة، معسل الكرز، كما يحب عمر، يدخنه وهو يرشف الدموع إلى جوفه، يتخيل أن جوفه قد تحول إلى بحيرة كبيرة من الدمع . في تلك اللحظات يشعر أن عمر يراه، فهو متأكد أن الأشواق الصادقة والقوية تصل بطريقة ما، كذبذبات الصوت، كان واثقاً أنه يستحيل أن تضيع كل تلك العواطف. ياه كيف ستضيع ؟!

ثم يترك المقهى ويقصد بائع الزهور، يشتري باقة من القرنفل الأحمر ويواصل السير في صحراء الحب، يمشي ويمشي منقاداً إلى سراب يصل الشاطىء، يتجاهل لهاث تعبه، يتجه نحو الصخرة، ويضع الزهور عليها ثم يعود إلى البيت.

إنها الصخرة التي كان يقف عليها عمر ويرمي بنفسه إلى البحر منتشياً.

تلقت الصخرة عشر باقات من القرنفل الأحمر المشبع بالحب، ولم يلنْ قلبها، وحين مشى إليها بخطوات بطيئة متعثرة، ووضع الباقة رقم ١١ فوقها شعر بارتعاش الحجر. ياه إنه واثق أن ثمة شيئاً يخفق في أعماق الصخرة، شيئاً يشبه القلب!

كانت الشمس قريبة وقاسية، رجاها أن تخفف غضبها، فصرخت محتجة وساطته بسياط لهيبها. أحس بوهن، ولم تعد قدماه قادرتين على حمله، ركع جانب الصخرة، فيما يداه تفكان أسر باقة القرنفل ببطء وتسقطان بتثاقل على الأرض.